الفصل الثاني

المقومات الأساسية للعقيدة الإسلامية

مقدمـــــــــــة:

مثل الإنسان في هذه الحياة الدنيا مثل شخص نزل في مدينة لم يسبق له علم بها من قبـــل، يريد أن يسير فيها ويتعرف على معالمها ويمارس حياته، فماذا عليه أن يفعل؟

إنه يجد لزاما عليه أن يحصل على "خريطة" عامة عن المدينة، تعرفه بما فيها من مواقـــع، وتحدد له خطوات السير، وتعين له الاتجاهات، وبقدر ما تكون تلك الخريطة دقيقة وصادقة، وبقدر إتقان هذا الشخص قراءتها وفهمها والالتزام بما تشير إليه بقدر ما يكـــون توفيقـــه في تحقيق المقصود من تفكيره وعمله وسلوكه على وجه العموم، والعكس صحيح.

لكن الحياة ليست مجرد "أماكن" ومعالم، إنها آفاق ومجالات، أفكار ومذاهب، اتجاهات ورؤى، أنظمة ومؤسسات، تفاعلات وصور صراع وتعاون وتنافس ... إلى غير هذا وذاك مما يقوم في حياتنا الدنيا، لكن تظل القاعدة صادقة، ألا وهى أن تتوافر بين يـــدي الإنـــسان "خريطة"، لكنها هنا لا تكون خريطة "أماكن" وإنما ما يمكن تسميته بالخريطة الفكرية، التي تحدد مواقع كلية: موقع الإنسان في هذا الكون، حقيقة هذا الكون نفسه، اتجاه العلاقات بين بنى البشر، والغاية، أو الغايات المقصودة من هذا وذاك، وقبل هذا: من وراء هذه الحياة الـــتي نعيشها؟

جملة هذه التساؤلات، وما سار على نهجها هي ما اصطلح كـــثيرون علـــى تـــسميتها "بالفلسفة"، والتي نسميها نحن هنا – للتيسير في الفهم والتنـــاول – "الخريطـــة الفكريـــة"، وأحيانا ما يطلق عليها البعض "إيديولوجيا"، وبعض من الكتـــاب الإســـلاميين: "التـــصور الإسلامي"، أو المذهبية.

ومؤدى هذا أن الإنسان يجد نفسه بحاجة ماسة إلى مثل هذه الفلسفة أو هـــذا التـــصور الكلى العام حتى يمكن أن يفهم مغزى وجوده في الدنيا، وأصل هذا الوجـــود، وموجـــده، ومصيره؟ والسبيل الأفضل للحياة الدنيا، والسبيل الأفضل لما بعد هذه الحياة الأولى؟

ومنذ فجر التاريخ، ألحت هذه التساؤلات الكلية على ذهن الإنـــسان، ولـــو تأملنـــا في تساؤلات الأطفال في سنوات عمرهم الأولى عندما يبدأون في الكلام والـــتفكير، فـــسوف

نجدهم يطرحون علينا مثل هذه التساؤلات في صورة تناسب عمرهم، فما من طفل إلا وسأل: من أين جئت؟ ومن أوجدني؟ وإلى أين أنا ذاهب؟ (1)

وعلى الرغم من آلاف السنين التي أمضاها الإنسان، محاولا بخالص تفكيره، أن يصل إلى إجابات تسكن معها جوارحه فيهدأ ويطمئن، لكن هيهات ... استمر حائرا، قلقا، إلا من رحم ربى ...حتى أتاه اليقين، على لسان أنبيائه ورسله، ومن خلال كتبه، ثم كانت الرسالة الخاتم ... الإسلام الذي وفر للإنسان أسسا عقائدية ومقومات لتصور يهديه سواء السبيل.

هذا الأساس العقائدي، وهذه الأسس أو التصورات التي من خلالها ينظر كل دين وكل مذهب إلى الوجود، ذو أثر عميق وقوى في جوانب الحياة التربوية، فلو فرضنا أن إنسانا يتصور أن الحياة مادية فقط، وأنه ليس وراء هذه الحياة حياة أخرى، فهو إذن سيبنى سلوكه وتفكيره وأخلاقه وحياته الاجتماعية على هذا الأساس، فالمذاهب الإلحادية التي تقول – مثلا – إن الإنسان مادة وأن حياة الإنسان هي هذه الحياة الدنيا، ستنظر إلى الإنسان على أنه حيوان منتج يأكل ويشرب ويعمل وليس وراءه بعد ذلك شئ، فإن تصورها للإنسان هذا وللحياة وللوجود لابد أن يؤدى إلى نتائج تربوية عملية، فلو نظرنا، مثلا، إلى أبناء بلاد الهند، فسوف نجد أن الهنود غير المسلمين، يقدسون أنواعا من الحيوان كالقردة والبقر، لذلك فإن البقر لا يذبح، مما ترتب عليه نتائج اقتصادية هامة، وهى أنه ليس فقط مئات الملايين من البشر يأكل ويشرب في القارة الهندية، بل هناك مئات الملايين من البقر تأكل وتشرب، ولا يستفاد من لحمها لأنها مقدسة عندهم، فالنظرة إلى الوجود كله تؤثر في النظام التربوي والنظام السياسي والنظام الاقتصادي والسلوك الأخلاقي (2).

ومن هنا كان لنا أن نؤكد على أن العلم التربوي هو بحكم طبيعته دائما بحاجة إلى تصور كلى شامل، يبنى عليه ويخطط ويوجه ويسير، بل إن هناك من الفلاسفة غير المسلمين، مثل جون ديوي الأمريكي، حيث قال بأن التربية لابد لها من (فلسفة)، (نظرية) ترسم لها الاتجاه، وتعين لها المقاصد، وتحدد لها الوسائل، وإلا تحولت العملية التربوية إلى عمل عشوائي لا فائدة منه ولا رجاء (3).

---

(1) سعيد إسماعيل على: الأصول الفلسفية للتربية، القاهرة، دار الفكر العربي، ٢٠٠١، ص ٥٦.

(2) المرجع السابق، ص ٦٥.

(3) جون ديوي: الديموقراطية والتربية، ترجمة متى عقراوي وزكريا ميخائيل، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤، ٣٤٠.

ومن هنا فإن بناءنا تربية إسلامية لابد وأن يتجه أول ما يتجه إلى المقومات الأساسية للعقيدة الإسلامية من حيث تصورها لهذه "الكليات" الأساسية، حتى يمكن أن تهتدي إلى صواب الاتجاه واستقامة الطريق، فتحسن ما تربى ومن تربيه، وهو ما سوف نسعى إلى تناوله في الفصل الحالي ...

أولا – اللـــــــه

الحق أن العقيدة في الإله هي رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها، فمن عرف عقيدة قوم في إلههم، فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان، ومن صحة المقاييس التي يقاس بها الخير والشر وتقدر بها الحسنات والسيئات، فلا يهبط قدر دين في هذا المجال إذا كانت عقيدته في الإله عالية، ولا يعلو دين وعقيدته في الإله هابطة ليست مما يناسب صفات الموجود الأول الذي تتبعه جميع الموجودات [4].

ولقد كان النظر في صفات الله مجال التنافس بين أكبر العقول من أصحاب الفلسفة الفكرية وأصحاب الحكمة الدينية، وقد كانت مهمة الفلاسفة أيسر من مهمة حكماء الأديان، لأن الفيلسوف النظري ينطلق في تفكيره وتقديره غير مقيد بفرائض العبادة ووجوه المعاملات التي يتقيد بها الحكيم الديني، ويتقيد بها من يؤمنون به من أتباعه في الحياة العامة والمعيشة الخاصة، فظهر بين الفلاسفة النظريين من سما بالتنزيه الإلهي صعدا إلى أوج لا يلحق به الخيال، فضلا عن الفكر والإحساس.

والحق أن قد كان هناك من كانوا يسمعون لصوت الفطرة تشير إليهم بأن من المنطقي ومن المعقول أن يكون وراء هذا العالم خالق أوجده، وهذا ما يتجلى لنا في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي فكر في موجد الوجود، والمتصرف في ملكوت السموات والأرض، فرأى كوكبا، فاعتقد أنه الله، ولما أفل (غاب) اقتنع بأنه ليس الله وإلا لما أفل، وطبق الفكر ذاته على القمر، ثم على الشمس، حتى توصل إلى التسليم للخالق العظيم: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ

(4) عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال (١٦٩)، أبريل ١٩٦٥، ص ٣٦ .

هَـــذَا رَبِّي هَـــذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِـــيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (لأنعام: ٧٥-٧٩).

وهناك القصة المشهورة عن ذلك الأعرابي الأمي البسيط، الذي هدته الفطرة إلى الحقيقـــة، إذ سأله سائل: كيف عرفت بوجود الله؟ فأجاب: يا سبحان الله، البعرة تدل على الـــبعير، والأثر يدل على المسير، وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، ألا يدل ذلك على اللطيـــف الخبير؟!.

أدرك هذا الإعرابي بفطرة سليمة وتفكير عقلي بسيط لم يتلوث بالأفكار المسمومة، مـــا بذل فيه الفلاسفة والمفكرون جهدا ضخما، أدرك بأن كل حادث لا يحدث بذاته، وإنما لابد له من محدث، وبقدر عظمة الحدث تكون عظمة المحدث، فلابد أن يكون محدث الكون بكل موجوداته قديرا قدرة مطلقة [5].

ومع ذلك فقد حرص الإسلام على أن يعتمد تكليف البشر بالإيمان بالله علـــى المنطـــق والإقناع، واحترام العقل والفكر في كيان الإنسان. ويتجلى أسلوب الإسلام في تناوله الأدلة والبراهين على وجود الله الخالق سبحانه وتعالى في بساطة ويسر، وفى جعل مألوفات البـــشر وما تقع عليه أبصارهم قضايا كونية كبرى، يكشف فيها للعقل ما يطمئن إليه كل الاطمئنان في اقتناعه بوجود الخالق الأعلى [6].

والقرآن الكريم، كتاب الإسلام، حافل بمتنوع الأدلة والبراهين، حسبنا في هذا المقام قوله عز وجل: (نحن نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَـــهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَن نُّبَـــدِّلَ أَمْثَـــالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنـــشَأْتُمْ شَـــجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْـــمِ رَبِّـــكَ الْعَظِـــيمِ) (الواقعة: ٥٧-٧٤)

(5) أحمد رجب الأسمر: فلسفة التربية الإسلامية، عمان، دار الفرقان، ١٩٩٧، ص ٩٥.

(6) حسن صعب: الإسلام والإنسان، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨١، ص ٥٣.

.بمثل هذا المنطق الإقناعي السهل خاطب كتاب الإسلام العقل، عقل الإنسان وفكره، بأسلوبه المعجز الذي يجد فيه العقل البسيط مجال نشاطه، كما يجد فيه التفكير الفلسفي نطاقا رحبا لحركته، وبعد هذا وذاك يجد التفكير العلمي خصوبة ومنطلقا إلى الإيمان الراسخ والاعتقاد المستيقن [7].

وقد أكد ابن رشد أن أفضل طريقة لإثبات وجود العالم عن الله سبحانه وتعالى هي ذات الطريقة التي نبه القرآن الكريم عليها، ودعا الكل من بابها، وإذا استقرأنا كتاب الله العزيز، فسوف نجد أنها تنحصر في نوعين [8]:

أحدهما، طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجلها، ويسمى هذا الدليل دليل العناية.

والطريقة الثانية، ما يظهر من اختراع (أو خلق) جواهر الأشياء الموجودة مثل اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية، والعقل، وهو ما يسمى دليل الاختراع (أو الخلق).

فإذا ما جئنا للدليل الأول، نجد أنه يقوم على أصلين: أحدهما أن العالم بجميع أجزائه يوجد موافقا في جميع أجزائه لوجود الإنسان ولوجود جميع الموجودات التي ها هنا. والأصل الثاني، أن كل ما يوجد موافقا في جميع أجزائه لعقل واحد، ومتجها نحو غاية واحدة، فهو "مصنوع"، ضرورة، وينتج عن هذين الأصلين، أن العالم مصنوع وأن له صانعا!

وتشير آيات قرآنية إلى هذا في قوله عز وجل: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا) (النبأ: ٦-١٦).

هذه الآيات، إذا تأملها الإنسان، وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الإنسان، .بمعنى توافر انسجام وتكامل وتآزر، وذلك أن الله تعالى ابتدأ فنبه على أمر معروف بنفسه لنا معشر الناس، وهو أن الأرض خلقت بصفة يتأتى لنا المقام عليها، وأنها لو كانت بشكل آخر غير شكلها، أو في موضع آخر غير الموضع الذي هي فيه، أو بقدر آخر غير هذا القدر، لما أمكن أن نخلق عليها ولا أن نوجد فيها، وهذا كله محصور في قوله تعالى (أَلَمْ

(7) يوسف عبد الهادي الشيال: الإسلام وبناء المجتمع الفاضل: القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية (٦٠)،ديسمبر ١٩٧٢، ص ٢٧.

(8) محمد يوسف موسى: الدين والفلسفة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٩،ص ١٤٧.

نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا)، وذلك أن المهاد يجمع الموافقة في الشكل والسكون والوضع، وزائدا إلى هذا المعنى، الوثارة – من وثير – واللين [9].

ثم نبه الله بقوله: (وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) (النبأ: ٧)، على المنفعة الموجودة في سكون الأرض بسبب الجبال، فإنها لو كانت أصغر مما هي عليه لتزعزعت من حركات الماء والهواء وتزلزلت وخرجت من موضعها، ولهلك ما عليها من الحيوان ضرورة، وإذن، فإن موافقة سكونها لما عليها من الموجودات لم يكن بالاتفاق، ولكن عن قصد قاصد وإرادة مريد، فهي ضرورة مصنوعة لذلك القاصد سبحانه وموجودة على الصفة التي قدرها هو.

وجاء بعد ذلك قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) (النبأ: ١٠، ١١) تنبيها على موافقة الليل والنهار للحيوان والنبات، إذ الليل يسترها من حرارة الشمس كما يستر اللباس الجسد ويقيه شديد الحرارة، ومع هذا فالليل يجعل ما فيه حياة يستغرق في النوم، ولذلك قال: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا)، أي مستغرقا في النوم بسبب الظلام.

ثم قال: (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)، وهى السموات معبرا بلفظ البنيان عن معنى الاختراع لها، وكذلك عن ما فيها من نظام واتفاق أو موافقة لما خلقت من أجله، عبر بلفظ الشدة عما جعل فيها من القوة على الحركة الدائمة، فليس هناك خوف من أن تخر السقوف والمباني العالية، وهذا كله تنبيه من الخالق على موافقة السموات والأفلاك وسائر ما فيها، في إعدادها وأشكالها وأوضاعها وحركاتها، لوجود كل ما على الأرض وما حولها، حتى إنه لو وقف جرم من الأجرام السماوية لحظة واحدة، فضلا عن أن تقف كلها، لفسد ما على وجه الأرض [10].

ثم نبه بقوله (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا)، على منفعة الشمس، وموافقتها لوجود ما على الأرض، إذ لولا الضوء لما انتفع الإنسان والحيوان، ونبه على هذه المنفعة لأنها أشرف منافع الشمس وأظهرها.

وأخيرا نبه الخالق، جلت حكمته، بقوله: (وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا) على العناية في نزول المطر، وأنه يتزل لمكان الحيوان النبات، وأن نزوله هذا بقدر محدود وفى أوقات محدودة لا يمكن أن يكون مصادفة، بل سبب ذلك، العناية الإلهية بالأرض وما عليها.

---

(9) المرجع السابق، ص ١٤٨.

(10) المرجع السابق، ص ١٤٩.

وأما دليل الاختراع (أو الخلق)، فهو يقوم على أن كل شئ من السموات والأرض والحيوان والنبات مخترع (مخلوق)، وذلك بدليل المشاهدة في هذين، وبدليل حركات السموات التي تؤذن بأنها مسخرة لنا، وكل ما كان كذلك فهو مخترع حتما، وكل مخترع (بفتح الراء) له مخترع (بكسر الراء)، فيصح من هذين الأصلين أن للعالم مخترعا (خالقا) له [11].

وإذا كان الله تعالى يأمرنا أن نقول: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (الأخلاص ١-٤)، نقول إذا كان الأمر كذلك، فإنه يجب علينا ألا نرجو أحدا غيره، ولا نخاف أحدا سواه، وأن نربى ناشئتنا على منهجه المرسوم في القرآن والمبين في السنة النبوية.

هذا وإن إفراد الله تعالى بالعبادة، وهو الذي يتضمن توحيد الربوبية ومعناه الاعتقاد بأن الله تعالى وحده هو رب العالمين، فصار عندنا التوحيد نوعين: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية [12]

وتوحيد الألوهية هو الذي بعث الله به جميع رسله، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء: ٢٥)، وقال:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ) (المؤمنون: ٢٣)، وقال:

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ) (الأعراف:٦٥).

وتوحيد الربوبية، يعنى أن الله هو رب العالمين على وجه الحقيقة، فلا رب سواه، فهو الخالق المحى المميت النافذ أمره وحكمه في جميع خلقه، بيده الملك وهو على كل شئ قدير، يتصرف في الكون كما يشاء لا معقب لحكمه، ولا لتصرفه، وهو القائم على شؤون خلقه والمتكفل بما يصلحهم، وهو القادر على النفع والضرر، إذا أراد نفع أحد فلا راد لفضله، وإن أراد بأحد غير ذلك، فلا مانع له من ذلك [13]، قال سبحانه وتعالى:

---

(11) المرجع السابق، ص ١٥٢.

(12) عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة عمان، مكتبة البشائر، ١٩٨٨، ص ١٨.

(13) المرجع السابق ص ٢٠٠.

(وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ) (الأنعام: ١٧)، فالله تعالى هو المتفرد بالعطاء والمنع والنفع والضر، وكل ما عـــدا الله فإنه فقير إليه، محتاج إليه: (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله)، فـــالفقر وصـــف ذاتي لكـــل مخلوق، كما أن الغنى وصف ذاتي لله رب العالمين.

ومن هنا كان وجوب إخلاص المحبة لله عز وجل، فلا يتخذ العبد ندا لله في الحب، كمـــا يحب الله، أو يقدمه في المحبة على حب الله عز وجل، فمن فعل ذلك كان من المشركين، قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ) (البقرة: ١٦٥)، فمن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، أن يتخذ العبد من دون الله ندا يحبه كما يحب الله عز وجل. وإذا كان الإنسان مفطورا على حب الذات والآباء والأبناء والأوطان والأموال، فإن إخلاص العبودية لله لا تعنى القضاء على هذه النوازع الفطرية، وإنما المطلوب من المؤمن أن يكون حب كل شئ في الدنيا عنده بعد حب الله عز وجل، وحب الله سبحانه عنده فوق كل حب، حتى يضحي بكل هذه القيم في سبيل الله إذا وقع تعارض بينها وبين ما يقتضيه حبه لربه، وقد توعد الله – عز وجل – من يقدمون هذه القيم الدنيوية على حب الله وحب رسوله r ، فقال سبحانه:

(قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْـــوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَـــا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة: ٢٤)

هذا ويستلزم توحيد الله عدة أمور [14]:

١- وجوب إفراد الله تعالى في الدعاء والتوكل والرجاء فيما لا يقدر عليـــه إلا هـــو سبحانه، قال عز وجل:

(وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ) (يونس: ١٠٦)، وقال أيضا:

(وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (المائدة: ٢٣)، وقال سبحانه وتعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـــئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّـــهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (البقرة: ٢١٨)

(14) محمد نعيم ياسين: الإيمان، أركانه، حقيقته، نواقضه، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٩، ط٢، ص ١٣.

٢- وجوب إفراد الله عز وجل بالخوف منه، فمن اعتقد أن بعض المخلوقات تضره بمشيئتها وقدرتها، فخاف منها فقد حاد عن طريق الإيمان الحقيقي، فسبحانه هو القائل: (فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) (النحل: ٥١)، وقال تعالى:

(وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (يونس: ١٠٧)

٣- وجوب إفراد الله سبحانه بجميع أنواع العبادات البدنية من صلاة وركوع وسجود وصوم وذبح وطواف، وجميع العبادات القولية من نذر واستغفار، وغير ذلك [15].

وقد امتلأ القرآن الكريم بالآيات التي تعرف الله لعباده تعريفا ينفى عن أذهانهم صور الضلال والانحراف أو يقر الحق في نصابه، فقال على سبيل المثال:

(اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) (البقرة: ٢٥٥)

هذه الآية تعرف بين المسلمين بآية الكرسي، وقد نوهت السنة النبوية بفضلها ومكانتها، وتتكون من عشر جمل متصلة المعنى في الحديث عن ذات الله وصفاته، كما يحللها لنا الشيخ الغزالي [16]:

١- "الله لا إله إلا هو ..."، ليس في الوجود أحد يتجاوز مرتبة العبودية، فكل ما عدا الله عبد له، وهو وحده المتفرد بالألوهية في السموات والأرض، كما سبق أن فصلنا.

٢- "الحي القيوم ..."، والأحياء من الخلق ليس لهم من أنفسهم ما يوجب الحياة، إن الحياة عرض مفاض عليهم من خارج أنفسهم، وهو عرض يفارقهم يوما ولا يعود إليهم إلا وفق مشيئة مفيضه جل شأنه، الحي الذي لا بداية لحياته ولا نهاية، فحياته وصف ملازم له أزلا وأبدا، وذلك هو الفارق بين الخالق والمخلوق. ولما كانت الحياة وضاحة ونفاحة، ناسب أن يجئ عقبها وصف القيوم الذي يمد الأكوان

---

(15) المرجع السابق ص ١٤.

(16) محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام، القاهرة، دار الدعوة، ١٩٩٠، ص ٢٨.

والخلائق كافة بحركاتها وسكناتها، ويشرف إشراف إحاطة وهيمنة على شئونها وأحوالها، فهي أحوج ما تكون إليه، وهو أغنى ما يكون عنها [17].

٣- "لا تأخذه سنة ولا نوم ..."، السنة، ما يخالط الأجفان من أوائل النعاس، والنوم هو الاستغراق التام.والمراد أننا نحن البشر تدركنا ساعات غفلة نفقد فيها الشعور بأنفسنا وما حولنا، بل نحن في إبان اليقظة يختلف انتباهنا ونشاطنا الذهني نحو ما نفكر فيه وما يحيط بنا، وعند التعب، يضعف هذا الانتباه، وتقل العزيمة وتكثر الأخطاء، ولكن رب العالمين لا يشغله شأن ولا يغفل عن أمر في السماء لاهتمامه بأمر كل ما على الأرض، ولا تلحقه عوارض الوهن والإعياء، ولا تنفك قبضته الواعية عن ذرة في العرش أو الفرش لسهو أو إغفاء [18].

٤- "له ما في السموات وما في الأرض ..."، فالله واسع الملك، وما نقول في غنى يشمل آفاق السموات وفجاج الأرض؟ إن العالم كله، علوه وسفله، ملك لله وحده.

٥- "من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه"، القاعدة في الإسلام أنه لا شفاعة لمشرك أو لملحد، وأنه لا حق لأحد من الملائكة أو المرسلين يذهب به إلى الله ليقول اعف عن فلان، أو اترك فلانا، وأن الأساس الأول للنجاة هو الإيمان والعمل الصالح [19].

٦- "يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم"، ليس يخفى على الله شئ في الأرض ولا في السماء وعلة الأمس واليوم والغد عنده سواء منذ خلق أو إلى أن تبدل معالمه، صفحة واحدة، يستوي فيها القريب والبعيد، والأول والآخر، وذلك – بداهة – لأن الخالق يعلم ما خلق، ولا يتصور أحدا من ورائه شيئا فيكون هو – سبحانه – جاهلا به [20].إن الإبداع – وهو أبرز شئ من العلوم – لا يقدر عليه إلا الله، والتغيرات التي تحدث في المادة – والتي هي محور الأعمال البشرية – لا تتم إلا بإقدار الله، ومن هنا كانت هذه الإحاطة إحاطة علم.

---

(17) المرجع السابق، ص ٢٩

(18) المرجع السابق، ص ٣٠

(19) المرجع السابق، ص ٣١

(20) المرجع السابق، ص ٣٢

٧- "ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ..."، فينابيع المعرفة تنبجس ابتداء من مشيئة الخالق، حتى العلم بما يقع في مجال السمع والبصر، فلولا ما ركب في الإنسان من عقل مدرك لماح [21] ما استطاع أن يفقه مما حوله شيئا، والإطلاع على ما هو أعمق من ذلك موكول إلى مراتب الذكاء الإنساني وأنصبتنا من هذا الذكاء هي مقسومة علينا منذ أن نكون أجنة في بطون الأمهات.

٨- "وسع كرسيه السموات والأرض"، فالمتبادر إلى الأذهان أن السموات والأرض هما حدود الملك الإلهي [22]، وهذا خطأ، فإنما بعض آثار القدرة العالية فحسب، ونحن لا ندرى ما الكرسي؟ وكل ما ندركه من هذه الجملة هي ما توحي به من الإشراف الإلهي العالي على سائر الخلق، ما نرى منه وما لا نرى.

٩- "ولا يئوده حفظهما ..."، أي لا يتجشم أية مشقة في ضبط كل ما في السموات والأرض وتدبير الأمر بينهما، كما أنه لا يتجشم أية مشقة في الخلق الأول [23].

١٠- "وهو العلي العظيم"، تذييلا يختم المعاني السابقة بذكر اسمين من أسماء الله الحسنى مناسبين للمقام، مقام العلو والعظمة الواجبين لذي الجلال والإكرام، الله سبحانه وتعالى [24].

والتوحيد ليس مجرد قضية فلسفية أو مذهبية أو كلامية، فهو أيضا قضية تربوية على الرغم من ندرة تعرض الكتابات التربوية لها، ودليلنا على "تربويتها" هو تأمل ما يكون لها من آثار على شخصية المؤمن، يمكن إيجازها فيما يلي [25]:

- يحرر التوحيد الإنسان من كل عبودية إلا لله سبحانه وتعالى، فيتحرر عقله من الخرافات والأوهام ـــ وتحرر ضميره من الخضوع والذل والاستسلام، وتتحرر حياته من تسلط القاهرين والأرباب والمتألهين على عباد الله.
- أنه يعين على تكوين الشخصية المتزنة التي توحدت غايتها، وتوحد طريقها، فليس لها سوى إله واحد تلوذ إليه في جميع أمورها وشئونها.

---

(21) المرجع السابق، ص ٣٣

(22) المرجع السابق، ص ٣٤

(23) المرجع السابق، ص ٣٥

(24) المرجع السابق، ص ٣٦

(25) يوسف عبد الغنى على: حول مفهوم التوحيد في رحاب القرآن المجيد، مجلة كلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، أسيوط، ١٩٨٥، العدد الثالث، ص٦١.

- أنه يملأ نفس صاحبه أمنا وطمأنينة، فلا يخاف شيئا ولا يرهب أحدا إلا الله، ولهذا نرى الموحد بالله، آمنا إذا خاف الناس، مطمئنا إذا قلق الناس وهادئا إذا اضطرب الناس.
- يمنح صاحبه قوة نفسية هائلة لما تمتلئ به نفسه من الرجاء في الله، والثقة بـه سـبحانه والتوكل عليه والرضا بقضائه والصبر على بلائه والاستغناء عن خلقه، فهـو راسـخ كالجبل، لا تضعفه الأهوال ولا تخذله المحن.
- أنه أساس لإثبات الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية، لأن الأخوة والمساواة لا يتحققان في حياة الناس إذا كان بعضهم أربابا لبعض، أما إذا كانوا كلهم عباد الله، فهذا هـو أصل المساواة والإخاء بين الناس، ولهذا كانت دعوة الرسـول r إلى ملـوك الأرض ورؤساء الدول مختومة بهذه الآية:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران : ٦٤).

- أن الإنسان إذا عرف مفهوم التوحيد معرفة كاملة، ودفعه ذلك إلى الـصدق والخـير والشجاعة، فلا يرى غير الله ولا يخشى سواه.
- أن مفهوم التوحيد في الإسلام إنما يرسم دائرة كاملة للمجتمع والفكر الإنساني، كـل قوامها سيادة الإنسان للكون تحت حكم الله والتقاء القيم الروحيـة بـالقيم الماديـة، وارتباط القلب بالعقل، والدنيا بالآخرة [26]. كل هذا في وحـدة شـاملة متكاملـة يحكمها التآلف والتآزر، إذ ما دام الخالق واحد أحد، فلابد أن يحكم مخلوقاته مثل هذا التكامل.

ثانيا – الكـــــــون

يلاحظ أن الموجودات التي يذكرها القرآن الكريم نوعان: نوع يمكن أن نطلق عليه: عالم الشهادة، أخذا من قوله تعالى واصفا نفسه (عالم الغيب والشهادة) – بكسر لام العالم -، فالله سبحانه وتعالى عالم، عالم الغيب والشهادة، فلنأخذ التسمية من كلمة الشهادة، وهى

(26) عمر محمد التومي الشيباني: فلسفة التربية الإسلامية، طرابلس، المنشأة العامة للنـشر والتوزيـع، ١٩٨٣، ٣٩.

كل ما يشهد بأي حاسة من الحواس، كل ما يستطيع الإنسان أن يدركه، وعالم مغيب عنا، كالروح والآخرة، ويدخل فيها الملائكة والجن وإبليس، وما إلى ذلك [27].

عالم الغيب:

فالقرآن أخبرنا بوجود عالم الغيب من جملة موجوداته، مثلا، الملائكة والجن وإبليس، نحن لا نستطيع أن نراها ولا أن ندخلها في مخبر الكيمياء أو الفيزياء، ولا مرصد الفلك، ولكن ليس هذا دليلا على عدم وجودها، ومن الخطأ أن نقول أن كل ما لا ندركه بحواسنا ليس موجودا، فعقولنا لا تدركها حواسنا، ولكن تدرك آثارها، ومع ذلك فعقولنا موجودة.

ومن هنا جعل الله "الإيمان بالغيب" صفة أساسية من صفات المؤمن حيث قال:

(الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. . . .) (البقرة: ١-٣)، ذلك أن هذا الإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود بحدود الحواس المعروفة أو امتدادها عن طريق الأجهزة التي اخترعها الإنسان، وهى نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفى إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير، كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس يعيش

في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته، أو يتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، أو يشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود، وأن وراء الكون، ظاهره وخافيه، حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده، الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول، وهى تحيط بكل شئ [28].

ولا نريد أن نخوض كثيرا في عالم الغيب، الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ولكن نقف وقفة قصيرة للغاية أمام قضية الإيمان بالملائكة من حيث ما يتركه مثل هذا الإيمان من آثار في حياة الناس، باعتبارنا هنا باحثين من منظور تربوي [29].

---

(27) عبد الغنى عبود: قضايا الكون، في: (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الفكر التربوي العربي الإسلامي، تونس، ١٩٨٧)، ص ١١٧.

(28) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج١، ص ٣٩-٤٠.

(29) محمد نعيم ياسين، الإيمان، ص ٤٦.

فمنها أن الله سبحانه جنبنا بما أطلعنا من أمر هذه الأرواح المؤمنة وأفعالها الوقوع في الخرافات والأوهام التي وقع فيها من لا يؤمنون بالغيب، ولا يتلقون معارفهم عن الوحي الإلهي.

ومنها، الاستقامة على أمر الله عز وجل، فإن من يستشعر بقلبه وجود الملائكة جنود الرحمن، ويؤمن برقابتهم لأعماله وأقواله، وشهادتهم على كل ما يصدر عنه ليستحي من الله ومن جنوده فلا يخالفه ولا يعصيه، لا في العلانية، ولا في السر، إذ كيف له ذلك وهو يعلم أن كل شئ محسوب ومكتوب ومشهود عليه؟ إن الإنسان إذا علم أن هناك بعضا من رجال الأمن السريين يرصدون أفعاله وحركاته وأحاديثه، فسوف يحرص على ألا يأتي في كل هذا بما يغضب أصحاب الشأن، فما الحال عندما يكون المراقبون جند الله؟!!

ومنها، الصبر، ومواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى، وعدم اليأس والشعور بالأنس، والطمأنينة، فهذه المعاني من لوازم الإيمان بالملائكة، وما أخبر من أفعالها وأحوالها: فعندما يضل الركب عن الطريق، وتسود صور خلل هيكلية في النظام القيمي، ويصبح المؤمن غريبا في وطنه وبين أهله وقومه، ويجد منهم الصدود والاستهزاء، والتخذيل والتثبيط عن طاعة الله والاستقامة على أمره، في هذه الغربة، يجد المؤمن أنيسا ورفيقا، يصحبه ويرافقه ويواسيه، ويصبره، ويطمئنه، ويشجعه على مواصلة السير على دروب الهدى، فهذه جنود الله معه: تعبد الله كما يعبد، وتتجه إلى خالق السموات والأرض كما يتجه، وتبارك خطواته، وتشد من أزره، وتذكره بالخير عند ربه، فهو إذا ليس وحده في الطريق إلى الله، ولكنه يسير مع الركب العظيم، ومع الأكثرية من مخلوقات الله عز وجل: مع الملائكة الكرام، ومع الأنبياء عليهم السلام، ومع السموات والأرض، فهو الأكثر رفيقا، وهو الأقوى سندا، فتجعله هذه المشاعر الصادقة صابرا مطمئنا، لا يزيده صدود الناس، إلا ثباتا وجهادا [30]

الكون المشهود:

أما حديثنا عن "الكون المشهود"، فيستحق – من حيث توافر وسائل الإدراك والمعرفة به أكثر – أن نتوقف وقفة أطول بعض الشيء محاولين استجلاء بعض جوانبه والكشف عن بعض أبعاده ...

وبالتالي فإن الكون المشهود هو الأرض وما أقلت، والسماء وما أظلت، والذي يخضع للمشاهدة الحسية من الإنسان، وبذلك يشمل: [31]

---

(30) المرجع السابق، ص ٤٧.

(31) أحمد الأسمر: فلسفة التربية الإسلامية، ص ١٠٩.

- الأرض وما عليها من إنسان ونبات وحيوان ومياه وهواء، وما يكمن في باطنها من معادن وذخائر وثروات متعددة متنوعة، غير ذلك من مكونات حية أو غير حية، متجددة أو غير متجددة.
- الغلاف الجوى الذي يغلف الكرة الأرضية، ويفصل بينها وبين السماء بمكوناته الغازية، من أكسجين ونيتروجين وأوزون وأكاسيد الكربون وبخار الماء وغيرها، والذي تعمل فيه قوى الجاذبية الأرضية
- السماء، وما تظله من شموس ونجوم ومجرات ومجموعات كونية وكواكب سابحة في الفضاء.

وقد ظلت الإنسانية دهورا طويلة لا تستقيم على تصور شامل للكون، ونحن نعلم من دراساتنا عن الفلسفة الإغريقية القديمة على سبيل المثال، سواء عند أنكسمانس، أو أنكساجوراس أو ديموقريطس، أنهم – مع غيرهم – ضربوا أخماسا في أسداس، فمن قائل أن أصل الكون ماء، ومن قائل أن أصله هواء، ومن قائل أن أصله نار ... وهكذا [32]، وما استطاع أحد أن يصل إلى الحقيقة التي لا يعلمها إلا خالق هذا الكون، وما تم التوصل إليه هو أطراف وجزئيات ...قطرات من بحر واسع لا تدركه العقول البشرية إلا بالقدر الذي يسمح به المولى عز وجل.

وكانت الأمم المختلفة، كلما جاءها رسول من عند الله بالصورة الصحيحة الصادقة، قبلتها قلة، وأعرضت كثرة، ثم عادت بجملتها فارتدت إلى تصورات منحرفة مشوهة، حتى جاء الإسلام بأكمل صورة للكون:

فالله سبحانه وتعالى يخبرنا، من خلال آيات قرآنه الكريم، أن هذا الكون مخلوق، حادث، ليس بالقديم الأزلي، كما أنه لم ينشأ من ذات نفسه، لقد خلقه الله سبحانه خلقا، وأنشأه إنشاء، بعد أن لم يكن، سواء في ذلك مادة بنائه الأساسية أو الصورة التي ظهرت فيها، ولم يشارك الله، سبحانه، أحد في خلق هذا الكون، ولا في خلق شئ منه، سواء في مادته أو صورته. إن الله سبحانه هو الذي أعطى كل شئ خلقه، أعطى كل شئ صورته، وأعطى كل شئ وظيفته [33]:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (النحل: ٣)

---

(32) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة زكى نجيب محمود، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ج١، الفلسفة القديمة، ١٩٥٤، ص ٥٥.

(33) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص ٣٢.

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ) (الطور: ٣٥، ٣٦)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (الزمر: ٦٢)

(مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) (الكهف: ٥١)

وعملية الخلق تحكمها إرادة الله – سبحانه وتعالى – وتتم في زمن، وليست من قبيل صدور المعلول من العلة، وإلا لأدى ذلك إلى قدم العالم كمعلول عن العلة كما في التصور الفلسفي، وأدى ذلك إلى أن يكون خلق العالم خلقا ضروريا، ولذلك فإن القرآن في هذه المسألة قد أدى إلى حقيقتين [34]:

أولهما، أن الله يخلق في زمن، وهو سبحانه القادر على أن يقول للشيء كن فيكون، ولكن حكمته تقتضي هذا السر الذي لا يعلمه إلا هو سبحانه، ولأن هذا التصور يناسب صفة الكمال له سبحانه، يقول عز وجل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...) (السجدة: ٤)

والثانية، أن الله سبحانه خالق بالاختيار، فإرادته مختارة كما يقول سبحانه:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس: ٨٢)

فالإرادة المختارة أساس لعملية الخلق، وهذا بخلاف التصور الفلسفي الذي يوجب على الله أن تصدر عنه المخلوقات صدورا ضروريا، أي بالطبع، وليس بالإرادة والاختيار [35].

وفى نصوص القرآن حديث به بعض التفصيلات عن نشأة الكون، وذكر لأيام الخلق، وذكر لمادة الكون في بعض مراحل نشأته، وذكر لبعض الأطوار والتحولات التي تمت فيه [36]:

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا

(34) راجع عبد الحميد الكردي: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الرياض، مكتبة المؤيد، ١٩٩٢، ص ٤٤٥.

(35) المرجع السابق، ص ٤٤٦.

(36) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص ٢٦.

أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (فصلت: ٩- ١٢)

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (الأنبياء: ٣٠-٣٣)

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا) (نوح: ١٥- ٢٠)

(فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ) (عبس: ٢٤-٣٢)

ثم إن ذلك الوجود الصادر عن الإرادة المطلقة هو وحدة متكاملة، كل جزء فيها ملحوظ فيه تناسقه مع سائر الأجزاء، ولكل موجود فيه حكمة تتعلق بهذا التناسق الكامل الملحوظ [37]:

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (الفرقان: ٢)

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر: ٤٩)

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ) (الملك:٢-٤)

(وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ) (فصلت: ١٠)

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاء وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (الروم: ٤٨)

وقد أبان القرآن الكريم أن مادة الكون، سواء أكانت الدخان، في مثل قوله:

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ) (فصلت: ١١)، أم الماء، في مثل قوله تعالى:

(37) عبد المحسن صالح: دورات الحياة، القاهرة، دار القلم، المكتبة الثقافية، يناير ١٩٦٣، ص٨.

(وَهُوَ الَّذي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ) (هود: ٧)، وفي مثل قوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) (الأنبياء: ٣٠)، أم التراب، في مثل قوله تعالى:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ) (فاطر: ١١)،

هي كلها مخلوقة لله تعالى مما يجعل كل مخلوقات الله من الدخان أو الماء أو التراب أو النار وما إليها متسمة في جوهرها بوحدة تنظيم كل مخلوقات الله في أرض وسماء، وهي محكومة بنظام كوني لا يتخلف لقوله تعالى:

(وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس: ٣٧-٤٠)

وهكذا يعرض الإسلام صورة صحيحة للكون يبدو فيها أن لكل موجود حكمة تتناسق مع غاية الوجود أولا، ويحفظ بها النظام ثانيا، تلاحظ في كل موجود. ولأن الوجود وحدة متكاملة الأجزاء، متناسقة الحلقة والنظام، كان مهيئا وصالحا ومساعدا لوجود الحياة بصفة عامة ولوجود الإنسان بصفة خاصة، فليس الكون عدوا للحياة، ولا عدوا للإنسان، والإنسان جزء من هذا الكون لا ينفصل عنه، وعليه أن يدرسه ويتفهمه ويعرف أسراره [38].

وهذا الكون – الذي هو خلق الله – بسبب من أنه خلق الله الواحد الحكيم، المنزه في خلقه عن العبث – قد حكمته وتحكمه – في كل صغيرة وكبيرة – السنن والقوانين، التي هي الأخرى، مخلوقة لله، أودعها وركبها في ذات الطبيعة وظواهرها وقواها، فكان النظام والانتظام الذي يبهر العقل الإنساني يوما بعد يوم، كلما اكتشف جزئية أو حقيقة من جزئيات وحقائق هذا النظام والانتظام [39].

لقد خلق الله هذا الكون لحكمة وعلة غائية، وعلى نحو ما أراد، وعلمنا وأعلمنا أن السنن والقوانين حاكمة لهذا الكون في الخلق والابتداء:

---

(38) محمد المبارك: النظرة الإسلامية إلى الكون والإنسان والحياة، في (منظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي: الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم)، الرياض، ١٩٨١، م١، ص ٢٦٢.

(39) محمد عمارة: معالم المنهج الإسلامي، القاهرة، الأزهر الشريف، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الشروق، ١٩٩١، ص ٣٩.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (يونس: ٥)، و(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) (الأعلى: ١-٣) و (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) (الدخان: ٣٨-٣٩) و (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) (ص: ٢٧)

فسنة الله، أي ما جرى به نظامه، قد حكمت خلق هذا الكون ووجوده في الابتداء عندما فطره و لم يك من قبل شيئا مذكورا، وهذه السنة.. النظام.. القانون..قد جعلها الله خلقا مبثوثا في أجزاء هذا الوجود، سماء وأرضا وأفلاكا، فحكمت سير ومسيرة هذا الكون عبر تاريخه، ووفق الحكمة الإلهية التي قدرها سبحانه، فتاريخ كل شئ في هذا الوجود قد حكمته، هو أيضا، السنن والقوانين: (40)

(سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً) (الإسراء: ٧٧)

(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا) (الأحزاب: ٣٨)

(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً) (الأحزاب: ٦٢)

(فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً..) (فاطر: ٤٣)

وامتاز الدين الإسلامي بأن جعل الإنسان يستخدم ما حوله من الكائنات وقوى الكون، ولفت نظره إلى أنه مسلط عليها بإذن الله، وأن الله قد سخرها له، من أكبر الأجرام التي تؤثر في حياته كالشمس، إلى أصغر الكائنات التي يستطيع الاستفادة منها كالنحل والذرة (41)، قال تعالى:

(اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (إبراهيم: ٣٢-٣٤). وقال أيضا:

---

(40) المرجع السابق، ص ٤٠.

(41) عبد الرحمن النحلاوي: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دمشق، دار الفكر، ١٩٩١ (مصورة)، ص ٢٤.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء ...) (البقـــرة: ٢٩)، وأيضا:

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْـــكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُـــمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) (النحل: ١٢-١٦).

وهكذا، من خلال هذه الآيات الكريمات – وما أكثرها في هـــذا المقـــام – يمهـــد الله للإنسان أرضه بمنه وكرمه، ولو شاء لجعلها وعرة صعبة لا تصلح لنشاط الإنسان، يهيئ لـــه وسائل الانتفاع بها والاستفادة بعناصرها، ويذلل كل ذلك من أجله ويخضعه لمشيئته بحيـــث يسيطر عليه بقوانين العلم ونواميس الحياة، أو يبحث عن الوسائل التي تهيئ له ذلك، فالله قد لفت نظر الإنسان إلى وظيفته الأصلية، وخلق الله "المادة الخام" والحيوانات والكائنات ليكون سيدها والمهيمن عليها، وهو مأمور حيث يخضعها لمشيئته أن يظل موصولا به ذاكرا أنعمـــه عليه، فما كان لعقله أن يهتدي إلى ذلك لو لا تيسير الله.. نعم، لـــولا عمليـــة التـــسخير والتذليل، وإمكانية العمل، وقابلية الكفاح لما توصل إليه من علوم ومخترعات، لو شاء لجعل كل هذه العناصر معاندة لطبيعة الإنسان، لا تخضع له ولا تنقاد، وكأنما يذكرنا ربنا بـــذلك حتى لا نغتر بما نحرز من نجاح، أو نحقق من آمال، أو نبني من حضارات [42].

ويدعونا "سيد قطب" أن نتوقف أمام آية مثل قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْـــهِ النُّـــشُورُ) (الملك: ١٥)

فالتأمل الدقيق والتفكير الواعي لما تتضمنه يوقفنا على عدد من المعاني العميقة والمدلولات ذات الأفق الواسع، فالأرض الذلول كانت تعنى في أذهان المخاطبين القدامى، هـــذه الأرض المذللة للسير فيها بالقدم وعلى الدابة، وبالفلك الـــتي تمخـــر البحـــار أو المذللـــة للـــزرع والإنبات [43]..

(42) توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم، القاهرة، مجمع البحوث الإســـلامية، سلـــسلة البحوث الإسلامية (٥٠)، مايو ١٩٧٢ ج١، ص ١٢٩.

(43) سيد قطب: في ظلال القرآن، م٦، ج٢٩، ص ٣٦٣٧.

وهى مدلولات مجملة يفصلها العلم – فيما اهتدى إليه حتى اليوم – تفصيلا يمد في ساحة النص القرآني في الإدراك ...

فما يقوله العلم في مدلول الأرض "الذلول"؟ إن هذا الوصف "ذلولا" الذي يطلق عادة على الدابة، مقصود في إطلاقه على الأرض، فالأرض هذه التي نراها ثابتة مستقرة ساكنة، هي دابة متحركة، بل رامحة راكضة، وهى في الوقت نفسه "ذلولاً" لا تلقى براكبها عن ظهرها، ولا تتغير خطاها ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الذلول، ثم هي دابة حلوب مثلما هي ذلول!

والله جعل الأرض ذلولا للبشر بأن جعل لها جاذبية تشدهم إليها أثناء حركاتها الكبرى، كما جعل لها ضغطا جويا يسمح بسهولة الحركة فوقها، ولو كان الضغط الجوى أثقل من هذا لتعذر أو تعسر على الإنسان أن يسير وينتقل – حسب درجة ثقل الضغط – فإما أن يسحقه أو يعوقه، ولو كان أخف لاضطربت خطى الإنسان أو لانفجرت تجاويفه لزيادة ضغطه الذاتي على ضغط الهواء حوله، كما يقع لمن يرتفعون في طبقات الجو العليا بدون تكييف لضغط الهواء [44].

والله جعل الأرض ذلولا بأن جعل الهواء المحيط بها محتويا للعناصر التي تحتاج الحياة إليها بالنسب الدقيقة التي لو اختلفت ما قامت الحياة، أو عاشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس!

والله جعل الأرض ذلولا بآلاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة، ومنها حجم الأرض وحجم الشمس والقمر، وبعد الأرض عن الشمس والقمر، ودرجة حرارة الشمس،وسمك قشرة الأرض، ودرجة سرعتها، وميل محورها، ونسبة توزيع الماء واليابس منها، وكثافة الهواء المحيط بها ...الخ، وهذه الموافقات مجتمعة هي التي جعلت الأرض ذلولا، وهى التي جعلت فيها رزقا، وهى التي سمحت بوجود الحياة، وبحياة هذا الإنسان على وجه خاص.

فإذا ما أردنا تبين ما يعكس مثل هذا التصور على التربية فسوف نجد [45]:

١- تربية الإنسان على الارتباط الدائم بالله والخضوع المطلق لأوامره كما تخضع له الجمادات والكائنات في السموات والأرض.

---

(44) المرجع السابق، ص ٣٦٣٨.

(45) مقداد يالجن: معالم بناء نظرية التربية الإسلامية، الرياض، دار عالم الكتب، ١٩٩١، ط٢، ص٤٣.

٢- تربية الإنسان على العمل الجاد لمعرفة كل ما سخر الله وما خلق له من النعم وكنوز المعادن وغيرها في الطبيعة، ثم تكوين مهارات لاستخراجه واستثماره واستخدامه لمصلحة الأمة خالصا لوجهه.

٣- تربية الإنسان على البحث عن أسرار الله وحكمته في كل مخلوقاته الصغيرة والكبيرة في الكون.

٤- الأهمية القصوى لربط مشاعر الإنسان وعواطفه دائما بالله عز وجل، من حيث الخشوع، والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء والحب له والكره والبغض لما يبغضه، وذلك عن طريق تذكيره بعظمة قدرة الله التي تخضع له السموات الأرض، يقول عز وجل:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (يس: ٨٢، ٨٣)، وكذلك تذكيره بنعمة الله في نفسه ورزقه وتسخيره الكون له، لأن الإنسان كلما رأى – حتى على المستوى البشرى كما نرى في الحياة اليومية - نعمة من غيره شعر بالحاجة إلى شكره وتقديره، وكلما رأى إكراما وإنعاما من غيره أحبه أكثر، وإذا أحبه مال إلى طاعته وعدم عصيانه، لأن المحب لمن يحب مطيع، ويخاف من عصيانه خوفا من أن يقطع عنه رزقه، هذا فيما إذا كان هذا الإنسان كريما أصيلا سويا في مشاعره، أما إذا كان لئيما، خبيثا، لا يبالي بهذا كله فهو ممن ينطبق عليه قول الشاعر المتنبي [46]:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ثالثا – الإنسان

ولابد لأي نظرية أو فلسفة تربوية من تحديد موقفها من الإنسان، بصفة أساسية، ومبرر ذلك سهل ميسور، ذلك أن الإنسان هو محور العمل التربوي وركيزته الأساسية، فنحن عندما نربى إنما نربى "إنسانا"، وعندما نعلم، إنما نعلم "إنسانا"، وعندما نقيم المؤسسات التربوية والمعاهد التعليمية، فمن أجل "الإنسان"، معلما ومتعلما وعاملا، تلك أصبحت من

(46) المرجع السابق، ص ٤٤.

مسلمات العمل التربوي مما لا يحتاج منا إلى مزيد من التفصيل ومزيد من البرهنة والتدليل [47].

والإيمان بأهمية الإنسان مبدأ أكده الإسلام والفكر الإسلامي، فبينا بوضوح كافة الجوانب المتعلقة بمصدر وسر وجوده والغاية من حياته والمصير الذي ينتظره في حياته الأخرى، كما فحصا الكثير من خصائصه ومميزاته ومكونات شخصيته، ووجهاه إلى ما ينبغي أن تكون عليه علاقته بربه وبنفسه وبأفراد أسرته وأفراد مجتمعه وأمته الإسلامية، وبالإنسانية عامة، وبكل ما في هذا الكون من موجودات، ويكفى دليلا على اهتمام الإسلام بالإنسان أنه ذكر في القرآن الكريم وحده في نيف وستين موضعا منه، وقد جاء ذكره في ثلاث مرات في أول سورة نزلت من القرآن الكريم:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى) (العلق: ١-٦)

وبالإضافة إلى الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الإنسان صراحة بالعدد المذكور، هناك آيات قرآنية كثيرة أخرى تحدثت عن الإنسان ضمنا في نطاق حديثها عن البشر أو الإنس أو المؤمنين، أو بنى آدم، أو في نطاق مخاطبتها لهؤلاء.

وإذا كان الله هو الخالق الوحيد، فالإنسان هو الخليفة الذي اصطفاه لعمارة هذا الكون، فهو ليس الحقير الذي يكمن خلاصه في "الفناء والامحاء"، لأنه سيد في الكون، سخر الله له ظواهره وقواه، لكنه ليس سيد هذا الكون، وإنما سيد فيه، وسيادته في هذا الكون "نعمة" أنعم بها عليه سيد هذا الكون وترقيته وفقا لبنود عهد الاستخلاف [48]، فهي – أي هذه السيادة الإنسانية - إنما قامت بمقتضى التكليف الإلهي، والتفويض الرباني، سبحانه وتعالى سيد هذا الكون وخالقه وراعيه، وهى محكومة بروح عهد الاستخلاف، وإطار النيابة والتوكيل الذي حمله الله فيه وبه الأمانة التي أشفق من حملها من عداه وما عداه من المخلوقات، إنه الخليفة عن الله في عمارة الأرض، بكل ما في الخلافة من تميز يمتاز به التصور الإسلامي عن غيره من التصورات [49]:

إنه الخليفة عن الله، حيث يقول سبحانه وتعالى:

---

(47) صادق سمعان: الفلسفة والتربية، القاهرة، النهضة العربية، ١٩٦٢، ص ١٤٩.

(48) محمد عمارة: معالم المنهج الإسلامي، ص ٣٥.

(49) المرجع السابق، ص ٣٦.

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (البقرة: ٣٠)، وكل ما بيده فإن له وعليه السلطة والسلطان، لكن ليست سلطة السيد وسلطانه، وإنما سلطة الخليفة وسلطان الوكيل المحكومتان بنطاق عهد الاستخلاف وعقد التوكيل، يقول:

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) الحديد /٧، وكل مسعى لهذا الخليفة في إطار عهد الاستخلاف ونطاقه هو عبادة:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: ٥٦).

والإنسان في الإسلام يرتفع ويهبط من خلال ما يفكر فيه وما يقول به، وما يسلكه في حياته مع الناس والأشياء، فحياته الدنيا وكل ما تتطلبه تلك الحياة من أعباء ومسئوليات هي معبر الإنسان المسلم إلى آخرته حيث الجنة والنار [50]. وتتلخص رسالة الإنسان في حياته الدنيا في نشر الحق والخير والعدل، ولا يتسنى للمسلم نشر الحق والخير والعدل ما لم يكن المسلم نفسه صورة صادقة لهذا الحق والخير والعدل، الذي يريد نشره، ولطالما نعى القرآن الكريم على الذين يقولون ما لا يفعلون، ومن هنا كان قوله عز وجل:

(كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ) (الصف: ٣)

كما لا يتسنى للمسلم ذلك، ما لم يوجد المجتمع المسلم الذي تتحقق فيه كرامة الإنسان مسلما كان أو كافرا.

ولعل هذا يدفعنا إلى التساؤل: هل نرسم في الجزء الحالي عن الإنسان، صورة حاضره وواقعه، كما تشير إليها مؤشرات الواقع الإسلامي المعاصر، أم نتلمس ملامح شخصيته كما ينبغي أن تكون؟

الحق أن الأمرين مطلوبان: صورة الواقع، وصورة المثال، فنرسم الصورة الكاملة للكيان الإنساني ونشاطاته، الصورة السوية الموزونة المتعادلة بلا اختلال، ونرسم إلى جانبها صورا للانحراف والشذوذ الذي يصيب هذا الكيان.

لكن قد يتساءل البعض: إذا كانت الصورة الكاملة لا توجد في واقع الحياة، فلماذا إذا نرسمها ونجهد أنفسنا في تخيلها والتأمل فيها؟

---

(50) عبد الفتاح جلال: من الأصول التربوية في الإسلام، سرس الليان (مصر)، المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار، ١٩٧٧، ص ٣١.

وأبسط رد على مثل هذا التساؤل هو الإحالة إلى ما غرسه فينا الخالق سبحانه وتعالى من نزوع إلى الكمال، وبالتالي تصبح هذه الصورة المثالية تحقيقا لذلك النزوع الفطري، ومع ذلك فلابد أيضا من القول بأن هذه الصورة المثالية ضرورة [51]، إن الجسم الكامل المتعادل المتزن بلا اختلال لا وجود له في الواقع، ومع ذلك فنحن في الفن أو التشريح أو الطب نرسم الصورة المثالية الكاملة لجسم الإنسان ونشاطه الجسدي، فلماذا نرسمها؟ قد يكون الفن نزوعا (خياليا)، أما الطب والتشريح، فهما (علمان) واقعيان، لا يتهمان بالخيال، فلابد إذا من أن تكون هناك ضرورة لما يرسمانه من صور الكمال.

والضرورة واضحة.. أن الأصل في الكيان – الجسدي أو النفسي – هو الصحة والمرض هو الطارئ، وهو الانحراف، وكون الإنسان عرضة للإصابة بالأمراض لا ينفى أن الأصل هو الصحة، ولا ينفى وجوب المحاولة المستمرة للرجوع إلى حالة الصحة، بقدر الإمكان، ومن ثم ضرورة الصورة الكاملة [52]

تكوينـــــــه:

ومن هنا كان لابد أن نتساءل عن (تكوين الإنسان) في الإسلام، ولا نريد بالتكوين هنا تركيب جسم الإنسان وتصويره من لحم وعظام وجوارح وتقاسيم، ولكنا نعنى الخطوط الجامعة التي فطر الله عليها هذا الكائن الممتاز في صفات خلقه ومشاعره وإدراكه وعقله المعجز الخطير، نعنى ذلك التقويم الروحي المادي الذي سوى عليه الإنسان، فكان كما أخبر الله سبحانه في قسمه:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين: ٤)

وبعبارة أقرب إلى فهمنا الحاضر، نريد معنى "التصميم" الذي يذكر في لغة المهندسين عندما يراد به الخطوط التي يقام عليها بناء بيت أو مصنع أو نحوهما ليؤدى الغرض منه على أحسن حال [53]

ولقد كان الإنسان في علم الله القديم – قبل أن يخلق – معنى جامعا للأوصاف التي يتألف منها كيانه المادي الروحي، أو كان "تصميما" – ولله المثل الأعلى – ينتظر الوقت الذي يظهره الله فيه إلى حيز الحس والمثال.

---

(51) محمد قطب: دراسات في النفس الإنسانية، القاهرة، دار الشروق، ١٩٧٤، ص ٣٧٧.

(52) المرجع السابق، ص ٣٧٨.

(53) البهي الخولي: آدم عليه السلام، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٧٤، ص ٤٣.

ولقد خلقه الله من طين، ونفخ فيه من روحه. وطينة الإنسان إذا أمدته بشيء فإنما تمده بخصائص الصلصال والحمأ المسنون، أما صفات القوة والخير والنور، فلا، إذ هي في ذلك كالأرض الميتة، فإذا رؤى على الإنسان أثر من هذه الصفات، فهو من خصائص السر الذي نفخه الله فيه من روحه (54)

فللإنسان بإزاء الحق والخير ناحيتان، إحداهما سلبية ميتة، وهى طبيعة الطين، والأخرى إيجابية حية، وهى طبيعة الروح، فإذا أمدت الأولى بمدد من الأخرى حيث روريت، أثمرت ما شاء الله من فضائل.

هذا هو "تصميم" الإنسان، أو التقويم الإلهي الذي سويت عليه فطرته، ولكن، هل فرغنا بعد من كل ما يتعلق "بالتكوين"؟ أو ما يتصل به؟

إن المهندس الذي يصنع "تصميم" قصر من القصور، لا يقتصر في تقدير "التصميم" على ما يجب أن يكون في هذا القصر من حجر النوم والطعام والضيافة ومرافق المطبخ ودورات المياه ونحوها، بل يدخل في حسابه – حتما – صلة هذا القصر بما يجاوره من طرق وشوارع وجيران ومناظر طبيعية، وإقبال الرياح وإدبارها، ومساقط النور ومداخل الشمس ونحو ذلك.

ونقول – ولله المثل الأعلى – إن الإنسان خلق لمهمة في هذا الكون، وقد نص الله سبحانه وتعالى على هذه المهمة، وأوضحها بجلاء حين قال:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة: ٣٠)

فكان من مقتضى حكمة الله أن يسوى هذا الكائن على المثال الذي يتكافأ مع تلك الخلافة وتؤدى به مطالبها (55).

ومن هنا فإننا نستطيع بدلا من أن نصف الإنسان، كما هو شائع بأنه (الكائن الناطق)، أن نصفه بأنه (الكائن المكلف)، فهذا أصوب في التعريف، وأشرف في التقدير ...هو كائن أصوب في التعريف من الملك الهابط ومن الحيوان الصاعد، وأشرف في التقدير من هذا وذاك، فليس الكائن الناطق بشيء ذا قيمة حقيقية إن لم يكن هذا النطق أهلا لأمانة التكليف، وليس الملك الهابط بمنزلة تهدى إلى طريق الصعود أو طريق الهبوط، وليس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عليه وما صار إليه ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال في طريق الارتقاء (56).

---

(54) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(55) المرجع السابق، ص ٤٤.

(56) عباس محمود العقاد: الإنسان في القرآن الكريم، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩، ص ٥٨.

بينما الكائن المكلف شئ محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيـــدة أو العلـــم أو الحكمة، وحادث من حوادث الفتح في الخليقة موضوع في موضعه المكين بالقياس إلى كل ما عداه. إنها عجيبة لم تأت من مصادفات التضمين والتخمين، لأن كتاب (القرآن) الذي ميـــز الإنسان بخاصية التكليف هو الكتاب الذي امتلأ بخطاب (العقل) بكل قدرة مـــن قدراتـــه، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون، قبل أن يصبح العقل "درسا" يتقـــصاه الدارســـون كنها وعملا، وأثرا في داخله وفيما خرج عنه وفيما يصدر منه وما يئول إليه [57]

وعلى الرغم من اقتصارنا في وصف تكوين الإنسان على الخطوط العامة العريضة، فإننـــا يمكن أن نتوقف قليلا أمام هذا الجانب الظاهري المنظور من الإنسان فنتأمل – على ســـبيل المثال - في أعضاء الإنسان الخارجية وأجهزته الداخلية من الناحية الوظيفية لهذه الأجهزة يجد الإنسان قد صنع صنعا عجيبا، على حد تعبير أحد فلاسفة التربية الأمريكيين، حيث يقـــول: "في الواقع لا يوجد شئ مثل الإنسان محير ومثير لأنه في الحقيقة صنع صنعا عجيبا ومخيفـــا" [58]

ومن هذا المنطلق أيضا صور بعض العلماء الإنسان مع أعضائه الخارجية وأجهزته تصويرا وظيفيا، فيرى ما يراه الإنسان وكأن كل جهاز من أجهزته آلة مصنوعة ويراه مع مجموعـــة أجهزته وكأنه عبارة عن مصانع وأجهزة مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا عجيبا [59]

وإذا كان سبحانه يوجه الخطاب إلى بنى البشر لافتا النظر إلى دلالة ما في الأرض من آيات صنعه (وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)، فهو يلحق بهذا أيضا في التو واللحظة: (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) (الذاريات: ٢٠، ٢١)، ذلـــك أن الباحث إذا استخدم عقله وجملة ما أعانه الله به من وسائل الإدراك الحسي، سوف يجد بداخله هو نفسه ما لا يمكن حصره من آيات إبداع الله عز وجل، حتى لقد أكد باحثون استمعوا إلى صوت العقل: "فأكثر الأسئلة التي يطرحها من يدرس أفراد الإنسان بقيـــت دون جواب، ولا تزال مناطق شاسعة من عالمنا غير معلومة" [60].

---

(57) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(58) فيليب هـــ. فينكس: فلسفة التربية، ترجمة محمد لبيب النجيحي، القاهرة، دار النهضة المـــصرية، د.ت، ص ٦٩٧.

(59) مقداد يالجن: معالم بناء نظرية تربوية إسلامية، ص ٥٠.

(60) اليكس كارليل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة أنطوان العبيدي،، القاهرة، دار الكتاب المـــصري، د.ت، ص ٢٣.

وقال أيضا: "حقا إن الإنسانية قد بذلت جهودا جبارة كي تعرف نفسها، ومع أننا نملك كنوزا من الملاحظات التي جمعها العلماء والفلاسفة والشعراء والمتصوفة، فنحن لا ندرك غير جوانب من هذا الإنسان وأجزاء منه ".

وعلى الرغم من أن هذا الكلام، قد قيل منذ عدة عقود، وخلالها، توصل باحثون إلى العديد من الجوانب المجهولة، إلا أن ما تم معرفته، ما زال حتى الآن دون ما هو قائم بكثير!

وإذا كان أبرز ما اتضح لنا في تكوين الإنسان أنه كيان مزدوج الطبيعة، فإن هذا يشير إلى أن هذا الازدواج يجعل الإنسان كائنا متفردا في عالم ما نعلم من مخلوقات هذا الكون، التي تمثل طبيعة واحدة ذات وجهة واحدة، فالحيوان من جانب، والملك من جانب – وهما المخلوقان اللذان يجمعهما بالإنسان صلات، كلاهما ذو طبيعة واحدة ووجهة واحدة [61]

فالحيوان - حتى أعلى درجاته التي تشبه الإنسان في تركيبه الجثماني– مخلوق ذو طبيعة واحدة، تتحدد بحدود الجسد القوى والتصرفات الفطرية – جسمه هو مصدر طاقته، قواه الفطرية هي الموجهة له، وتصرفاته الفطرية هي عالمه بأكمله، يأكل ويشرب ويؤدى عملية الجنس بدافع جسدي بحت، لا إدراك فيه لهدف أو لا تصرف فيه في وسيلة، يأكل حين يدفعه الجوع أو يمسك حين تقرر له معدته حد الاكتفاء، وينشط نشاطه الجنسي في موسم معين محدد، لا يختار هو وقته، ولا يحدد هدفه، ولا يدركه أو لا يختار سلوكا فيه معينا غير ما توحيه له نوازعه الفطرية، ثم يكف عن هذا النشاط جملة في موعد كذلك محدد، لا يختاره هو ولا يدرك سره، ولا يملك كذلك مخالفته بحال من الأحوال.

والملك – من وصفه الذي نعرفه وإن كنا لا نراه – مخلوق ذو طبيعة واحدة كذلك، وذو اتجاه واحد، مخلوق يعيش في نطاق روحي ومطيع توجيهاتها بلا إرادة ذاتية ولا تصرف ذاتي، فالملائكة مخلوقات مفطورة على الطاعة المطلقة (...لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (التحريم: ٦)، وهي، وإن لم يكن لها قوى جسمية، لأنها ذات أجسام مادية، فإن لها "قوى روحية"، تعمل بوحيها في كل أمر دون تفكير أو تصرف أو اختيار، أي أنها ذات طبيعة واحدة تعمل في اتجاه الروح [62].

و لم يفت الإنسان من قديم أن يفرق بين عنصره المادي ممثلا في الجسد، وعنصره المعنوي ممثلا في الروح، وقد ربط الحياة والموت بهذه الروح التي تمنحه الحياة، فكانت الروح تعنى النفس، من حيث لا بقاء لنفس بغير روح.

---

(61) محمد قطب: دراسات في النفس الإنسانية، ص ٤١.

(62) المرجع السابق، ص ٤٢.

وشغل الفلاسفة والمفكرون من قديم الزمان بأمر هذه الروح، وقلما نلحظ في كلامهم عنها أنهم يفرقون بينها وبين النفس، فهم يذكرون الروح ويعنون بها النفس، كما يذكرون النفس ويعنون بها الروح، وقد أعياهم أن يصلوا إلى كنهها، وإن عرفوا من خواطرها أنها سر الحياة، متى فارقت الجسد فسد ومات، ومن حيث كانت سر الحياة انتفى عند أكثرهم القول بموتها وفنائها، لأن ما به تكون الحياة لا يفنى بالضرورة ولا يموت (63).

أما من أين جاءت؟ وإلى أين تمضى؟ فذلك ما تحيرت فيه العقول والأفكار، وتاهت الظنون وضلت الأوهام.

وأكثر الفلاسفة اليونانيين، يذهبون إلى أن الروح عنصر لطيف مختلف عن البدن، ومتى فارقته عادت إلى عالمها العلوي "سابحة في عوالم الفلك، غير قابلة للموت" كما قال فيثاغورث لديوجينس. وعند أفلاطون أنها جوهر الإنسان، وهى ذات مستقلة عن البدن، فليس جزءا من ماهيتها، ولا يدخل في تعريفها، وهى تهبط مكرهة من عالم علوي إلى أحد الأجسام، ومن الواجب أن تعمل ما استطاعت على التطهر من الأدران التي تلحقها بسبب وجودها في سجن البدن، والموت هو سبيل الخلاص لها، والنفوس خالدة لا تموت.

وأرسطو رآها كذلك مستقلة عن الجسم، ذات وجود سابق عليه، وتخلد بعده لا تموت ...وهكذا (64).

والإشكالية التي شُغل بها الفكر الفلسفي والتربوي والأخلاقي من حيث التساؤل عما إذا كان الإنسان بطبعه خيرا أو شريرا، هي إشكالية زائفة، ذلك أن الطبيعة الفطرية للإنسان محايدة، صفحة بيضاء، مثلها مثل المادة الخام، والإنسان بإرادته، وتفكيره، وما يحيط به من ظروف، وما يتفاعل معه من متغيرات، هو الذي يشكل هذه المادة الخام فتتخذ هذا الوضع أو ذاك، يقول ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه"، كما رواه البخاري ومسلم، مما يؤكد الطبيعة المرنة للإنسان وقابليتها للتعديل.

ولما كان الجهاز العصبي للإنسان يتأثر بالتكرار، فإن كثيراً من العادات والأعراف والتقاليد الاجتماعية تترسخ لدى الأجيال، ولا تتعرض للمحاكمة العقلية، ولذلك يغدو من العسير التخلص من السئ منها كعادة الثأر مثلا، التي لا يزال معمولا بها في عدد من المجتمعات الإسلامية، مع مخالفتها للشرع الذي يقرر أن القاتل المتعمد هو الذي يُقتل وليس أي فرد من

(63) عائشة عبد الرحمن: مقال في الإنسان، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩، ص ١٤٣.

(64) عبد الرحمن بدوي: تاريخ الفلسفة، القاهرة، النهضة المصرية، د.ت، ص ٧٩.

عشيرته أو عائلته، ومع ذلك، فلا زالت العادة مستشرية، يخضع لها العالم والجاهل، والكبير والصغير، ومهما بلغت صعوبة التخلص منها إلا أنها لا تصل إلى درجة الاستحالة [65].

وإن مرونة الفطرة الإنسانية، وقابليتها لتعديل المعتقدات والتصورات والمفاهيم والمواقف، هي مناط الرسالات المساوية، التي جاءت لتعديل المعتقدات والتصورات والمفاهيم الخاطئة، اعتمادا على كون الفكر البشرى قابلا لإعادة التشكيل.

وضمن هذه المرونة والقابلية للتعديل تقع مسؤولية الإنسان عما يقوله من أقوال، وما يفعله من أفعال، يقول سبحانه وتعالى:

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ) (الإسراء: ١٣)

(وَأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى) (النجم: ٣٩)

(يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) (القيامة: ١٣)

ومن هنا أصبح واضحا أن ما خص الله عز وجل به الإنسان من تكريم وتفضيل، ليس لذاته الظاهرة، بشكله أو حجمه، أو جنسه أو لونه أو نوعه، ولا لمكانته الاجتماعية وانتماءاته الطبقية، فهذا أبعد ما يكون عن عدل الخالق – جل وعلا – وإنما التكريم والتفضيل والتقدير لذاته الباطنة، المتمثلة في تقوى الله، واتباع الحق والخير والعدل، وما يصدر عنها من اعتقادات وتصورات وأعمال وأقوال وسلوك وتصرفات، تنفع ذاته، ومجتمعه، وأمته، والإنسانية جمعاء، وتدفع الحياة قدما إلى الرقى والتقدم وعمران الأرض، بكل ما يتطلبه هذا العمران ماديا ومعنويا [66].

رابعا – المجتمع

على الرغم من أن التربية تنصب على "فرد"، وتضع في اعتبارها في كل ما تقيمه من نظم وما تقرره من مقررات، وما تشير إليه من علاقات، على ما يحمله هذا الفرد من قدرات واستعدادات، وما يكون له من ميول واتجاهات، وما يطمح إليه من آمال وأهداف، لكنها في الآن نفسه لا يغيب عن بالها أن هذا الفرد إنما هو محصلة عملية اجتماعية تفاعل فيها ذكر

(65) أحمد الأسمر: فلسفة التربية الإسلامية، ص ١٦١.

(66) المرجع السابق، ص ١٦٢.

وأنثى، وحكمت هذه العملية قواعد وقوانين وأعراف، ونظم وتقاليد وأخلاق اجتماعية [67].

من هنا فقد أصبح من المستقر عليه في العلم التربوي أن التربية تعتبر "المجتمع" مصدرا أساسيا لها، من حيث الثقافة والخصائص والمشكلات والأهداف، والعلاقات، وما يقوم عليه هذا المجتمع من عقيدة وأفكار. ومن ثم فإن المدرسة، بمعناها الواسع الذي يشمل أي مؤسسة تعليمية، لا يمكن أن تنفصل عن المجتمع، كما أنها لا يمكن إلا أن تتفاعل مع الموروث الحضاري للمجتمع الذي تعيش فيه، وتتفاعل في الوقت نفسه مع المتغيرات الحادثة في هذا المجتمع ومع التيارات التي يستحدثها العصر، وإلا تخلفت عنه.

ولقد كان للاختلاف في النظرة إلى المجتمع أثره الواضح على النظرة إلى التربية، فالنظرة إلى الفرد على اعتبار أنه ذو أولوية على المجتمع، كان من شأنها تأكيد النزعة الفردية في التربية، واعتبار المجتمع وسيلة لغايات الفرد، بنقل محور العملية التربوية من المعلم إلى التلميذ، وإقامة النشاط المدرسي على سيكلوجية هذا التلميذ، واعتبار حريته هي الهدف الأول في توجيه هذا النشاط، وجعل خبراته الفردية وميوله وحاجاته ورغباته هي محتوى المنهج، والتقليل من سلطة المعلم وتوجيهه المباشر، وإغفال أهداف المجتمع ومطالبه الاجتماعية، والنزول بالكتاب المدرسي ورصيد المعرفة كما تعبر عنه المواد المدرسية إلى مرتبة ثانوية.

ومثل هذا لمسناه في فلسفة التربية البراجماتية، التي كان لها أثرها الكبير في التعليم وأساليب التربية في كثير من البلدان العربية، وخاصة في فترة الخمسينيات من القرن العشرين [68].

لكن عرفنا كذلك نظرية ترى الحقيقة الأساسية هي في وجود المجتمع، كما عبرت عن ذلك النظم الفاشية والنازية التي طبقت في كل من ألمانيا في عهد هتلر، وإيطاليا في عهد موسوليني، وعبرت عنها كذلك الفلسفة الماركسية، وتجلت في مختلف أشكال التربية التي طبقتها البلدان التي عرفت بالبلدان الشيوعية، بل وكذلك بلدانا عربية جنحت إلى ما عرف بالاشتراكية، في بعض توجهاتها. وفى ظل هذه الفلسفة، نظر إلى المجتمع على أساس أن يكون هو صاحب الأولوية، وبالتالي فهي تغلب المصلحة الاجتماعية على المصلحة الفردية، ومن ثم فإن مثل هذه النظرة تبنت نظرة تكاد تلغى فردية الإنسان وتهدف إلى صب الأفراد في قالب واحد، تحدده أغراض علوية قد لا تتصل بحياتهم وحاجاتهم ومشكلاتهم، بل إن التربية في ظل

---

(67) صادق سمعان، الفلسفة والتربية، ص ١٤٦.

(68) سعيد إسماعيل على: فلسفات تربوية معاصرة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٥، الفصل الخاص بالبراجماتية.

هذا المنظور قد تصبح وسيلة لغاية أخرى هي تحقيق كيان اجتماعي يفرض فرضا على الأفراد ويتخذون أدوات فيه [69].

لكن نظرية الإسلام في هذا الشأن تستند إلى تلك الحقيقة التي برزت لنا ونحن بصدد الحديث عن تكوين الإنسان، ففوارق العناصر إنما هي فوارق أسماء وعناوين، و"الإنسان" أسرة واحدة على تعدد أبنائها وتعدد أقسامها، واختلاف الألقاب اللغوية التي تطلق على تلك الأقسام.

وفحوى هذا أن الإسلام قد وضع الإنسان – علما ودينا في موضعه الصحيح، حين جعل تقسيمه الصحيح أنه "ابن ذكر وأنثى"، وأنه ينتمي بشعوبه وقبائله إلى الأسرة البشرية التي لا تفاضل بين الأخوة فيها بغير العمل الصالح وبغير التقوى فقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣)

وقد نسميهم باصطلاح الأسماء "أمما" كثيرة، كلما تباعدت بينهم المواطن وحجزت بينهم الحدود، وتشعبت بينهم العقائد واللغات، لكنهم قبل هذا الاختلاف أمة واحدة لها إله هو: رب العالمين.

فإذا كانوا قد تعددوا شعوبا وقبائل في الآية الشريفة، فإنما كان التعدد أقوى الأسباب لإحكام صلة التعارف بينها وتعريف "الإنسانية" كلها أسرار خلقها، فإن تعدد الشعوب والقبائل يعدد المساعي والحيل لاستخراج كنوز الأرض واستنباط أدوات الصناعة على حسب المواقع والأزمنة، وعلى حسب القدرات والعادات التي تتفتق عنها ضرورات العيش والذود عن الحياة، فينجم عن هذا ما لابد عنه من تعدد الحضارات وأفانين الثقافة، وتزداد "الإنسانية" عرفانا بأسرار خلقها، وعرفانا بخالقها، واقترابا فيما بينها، وتضطر إليه اضطرارا لما تلمسه من اشتباك منافعها وسريان الضرر من قريبها إلى بعيدها [70]، ويقول سبحانه وتعالى:

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (يونس: ١٩)

وإذا كانت الفوارق الفطرية تفيدنا في التعارف والتعاون، وبالتالي لا تضر من وجهة نظر الإسلام، إلا أن الإسلام لا يقيم بنيان المجتمع بموجبها، إذ أنه متى وجدت العصبيات لها،

---

(69) جون ديوي: الديموقراطية والتربية، ص ٩٦.

(70) عباس محمود العقاد: الإنسان في القرآن الكريم، ص ٥٦.

ووضعت الفوارق والامتيازات تمزق المجتمع البشرى [71]، لذا فإن الإسلام يرفض العصبيات والنظرات الضيقة الأفق: "ليس منا من مات إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية"، فيما رواه أبو داود من حديث رسول الله r ، بل إن الرسول الكريم يقرر حقيقة الإخاء الإنساني في أخشع لحظاته مع الله، وهو ساجد: "وأنا شهيد أن العباد كلهم إخوة"، فيما رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

وإذا كانت الفروق الخلقية العضوية واللونية والعرقية لا تصلح في التفريق بين الناس في المعاملات، فكذلك الفروق الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك الفروق الثقافية، والفروق الناتجة عن المناصب الإدارية، جميعها لا يرى الإسلام فيها معايير في التفرقة بين الناس في التعامل، لأن الإسلام يرفض رفضا قاطعا التمايز بين البشر، فيحابى الغنى ويهمل الفقير، ويحترم المثقف وحده ويحتقر الأمي، ويعظم الرئيس ويزدرى المرؤوس: (إِ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ ...) (النساء: ١٣٥)، وكذا التمايز بين الأسود والأبيض في الحقوق والتمايز بين المواطنين والأقوام والأجناس، والشعوب والقبائل والأديان والمذاهب والطوائف، إذ لا تمايز في الإسلام [72]، إلا بمقدار ما يكون عليه من تقوى، وما يقوم به من عمل تحكمه هذه التقوى.

وللشريعة الإسلامية أهداف اجتماعية لابد أن تتحقق في كل مجتمع، ولو بين آحاد الناس بعضهم مع بعض، إذا جمعتهم بيئة، ولو كان جوارا في سفر، أو جلوسا في مركب، أو اجتماعا في معبد، أو استراضة في ناد، أو لقاء عابرا لا استقرار فيه [73]. كما تتحقق هذه الأهداف في المجتمعات المستقرة كالأسرة، والمجتمع الصغير، والمجتمع الكبير في الأمة الواحدة، أو في الأسرة الإنسانية كلها.

وإن الشريعة الإسلامية تتجه في كل أحكامها إلى تحقيق هذه الأهداف الاجتماعية، وهى المقاصد العليا للشريعة الإسلامية، فقد جاءت لتكوين مجتمع فاضل يضم الأسرة الإنسانية كلها، قاصيها ودانيها، وابتدأت فاتجهت إلى تربية المسلم ليكون عضوا في مجتمع، والعبادات الإسلامية والفضائل التي دعا إليها الإسلام تتجه نحو تحقيق هذه الأهداف [74]

---

(71) عابد توفيق الهاشمي: مدخل إلى التصور الإسلامي للإنسان والحياة، عمان، دار الفرقان، ١٩٨٢، ص ١٨٢).

(72) المرجع السابق، ص ١٨٣.

(73) محمد أبو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع، القاهرة، د.ن، ١٩٦٥، ص ١٩.

(74) المرجع السابق، ص ٢٠.

ولقد جعل الإسلام كفارات الذنوب تعاونا اجتماعيا، فمن أفطر في رمضان فعليه فك رقبة، أو صيام ستين يوما أو إطعام ستين مسكينا، ومن قال لامرأته أنت حرام على كأمي لا يقربها إلا إذا أعتق رقبة، أو صام ستين يوما أو أطعم ستين مسكينا، ومن حلف وحنث في يمينه كان عليه عتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم.

وهكذا نجد الكفارات للذنوب تعاونا اجتماعيا، كأن الذنب الذي يرتكب، أو التقصير في عبادة هو اعتداء اجتماعي، فلا يكفر عن الاعتداء الاجتماعي إلا تعاون اجتماعي يسد النقص ويزيل الخلل. ولقد اعتبر كل إعطاء للفقير مكفر للسيئات، مطهرا من المعاصي، ولذا قال r "الصدقة تطفئ المعصية، كما يطفئ الماء النار"، إذ كل معصية، مهما ضؤلت أو كبرت، أعلنت، أو أخفيت، تعد اعتداء اجتماعيا فلا تزول إلا بتعويض للمجتمع، فالكذب والنميمة والغيبة وغير ذلك من الآفات الاجتماعية التي قد تحدث من الأشخاص من غير اكتشاف لها، أو وضع رقابة مستمرة عليها من معاص اجتماعية، ويجب لتكفيرها أن يتوب صاحبها، ويقلع عنها، وأن يقدم للمجتمع معونة بقدر ما قدم من أذى على طاقته [75].

ونحن نطالع في القرآن الكريم دائما دعوة ملحة في أكثر من موضع إلى أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمعا قويا، وأن من الضروري في الأخذ بأسباب القوة، اعتماد حقائق العلم وكشوفه لتطوير الحياة وترقية الحضارة البشرية بمزيد من التطبيقات التقنية على كافة المستويات، وهو من جانب آخر موقف مرن يتميز بالشمولية والديمومة، إذ أنه دعوة للإفادة من الحقائق العلمية "الراهنة" في مدى كل عصر لإحداث تطبيقات على مستوى العلاقات "المدنية" لذلك العصر، فإذا ما حدث وتغيرت الحقائق العلمية وتبدلت العلاقات المدنية كان بمقدور الخطاب القرآني أن يمضى ليخاطب كل جيل من أجل أن يتحرك لإحداث تطبيقات أخرى على مستوى الحياة الجديدة ومن خلال العلاقات المتغيرة [76].

ويكفى مثالا على ذلك أن نتأمل دعوة الله سبحانه وتعالى لنا، من خلال آيات القرآن الكريم إلى أن نعد لأعدائنا "القوة" التي نرهبهم بها، ونحمى بالتالي وجودنا ودورنا في الأرض، وكذلك فلا بد من الوعي بأن هذه الدعوة جاءت متضمنة هذا الموقف المرن الشمولي الممتد عبر الزمان والمكان الذي يرتقى فيه الراهن بالشامل، والموقوت بالدائم، يقول عز وجل:

---

(75) المرجع السابق، ص ٢١.

(76) عماد الدين خليل: مدخل إلى إسلامية المعرفة، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٠، ص ٤٢.

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ – مطلق القوة – وَمِن رِّبَـاطِ الْخَيْـلِ - أي أكثـر الأسلحة مضاء في ذلك العصر على وجه الخصوص - تُرْهِبُونَ بِهِ عَـدْوَّ اللّـهِ وَعَـدُوَّكُمْ) (الأنفال: ٦٠)

بل لقد أكد سبحانه وتعالى في سورة الحديد على اعتماد هذا الخام الخطـير في ميـادين السلم والحرب، دونما تحديد ملزم لطرائق الاعتماد وصيغه فقال:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحديد: ٢٥).

ولعل تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خامات الأرض لدليل واضح علـى ارتباط المسلم بالأرض، وكذلك فإن من أبرز وسائل الإقناع لنزعة التحضر والتطبيق العلمي والتقني والإبداع والبناء التي جاء الإسلام ليجعلها جزءا أساسيا مـن أخلاقيـات الإيمـان وسلوكياته في قلب العالم، هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعبـاده، وتعرض معها المسألة من طرفيها اللذين يتمخضان إما عن الحديد: "البأس الشديد" متمثلا في استخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكري و "المنافع" التي يمكن أن يحظـى بهـا الإنسان من هذه المادة الخام في كافة ميادين نشاطه وبنائه السلمي [77].

لكن هذه الدعوة القوية إلى اتخاذ أسباب القوة لنرهب بها أعداء الله وأعداءنا، تؤكد لنـا في الوقت نفسه أنها ليست قوة غشوم تستبد وتسلب وتقهر، وإنما هي لحماية الحق، وتحقيق العدل، والحق والعدل صنوان، فلا حق بدون عدل، ولا عدل بدون حق، وإذا فقد أحـدهما فقد الآخر "وتعشق الحق والعدل، من مقومات الذات الإنسانية القويمة، يـشعرها بذاتيتـها وقيمتها وكرامتها ومكانتها، ويوفر لها الأمن والاستقرار والطمأنينة" [78]

وتجئ آيات القرآن واضحة جلية:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) (البقرة: ١٧٦)

(قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ) (يونس: ٣٥)

(إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) (النحل: ٩٠)

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ) (الأنعام: ١٥٢)

---

(77) المرجع السابق، ص ٤٣.

(78) أحمد الأسمر، فلسفة التربية الإسلامية، ص ٢١٨.

كذلك تجئ أحاديث الرسول r مؤكدة ما سبق أن قرره سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

"أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه"

رواه البخاري

"إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته" رواه البخاري ومسلم والترمذي.

وجاء في الحديث القدسي:

"يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا"

رواه مسلم

والمجتمع المسلم مجتمع غير جامد، فسنة الله في خلقه تنبئ بحتمية التغير، لكن، ما نقطة التغيير؟ هنا تتجلى النزعة التربوية للنظرة التربوية الإسلام، فنقطة التغيير وبدايته، هي الإنسان نفسه، بعقله وبسلوكه،وعواطفه ومهاراته، فما دامت الإشارة تستخدم مطلق "ما بأنفسكم" فهذا يعنى كل ما يحتمل ويستحق التغيير مما هو بأنفسنا، يقول سبحانه وتعالى:

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: ١١)

إن هذا معناه أن التحول في بناء البشر مقدمة للتغيير الاجتماعي، فالإسلام نفسه دعوة للتغيير النفسي أولا من عادات المجتمع المادي أو الجاهلي إلى عادات المجتمع الإنساني: هو دعوة للتحول من مظاهر اجتماعية معينة إلى مظاهر أخرى مقابلة لها تماما، عن طريق التعبير بأخطار المظاهر الاجتماعية الأولى (79)

فإذا كان من عادات المجتمع المادي أو الجاهلي: الإمساك عن الإنفاق على صاحب الحاجة، ويتجلى هذا فيما يذكره الله سبحانه عن الماديين:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللَّهُ أَطْعَمَهُ) (يس: ٤٧)،

فإن دعوة الإسلام تتجه إلى تغيير هذه العادة في نفوس المؤمنين بالله إلى أن يصبح الإنفاق على أصحاب الحاجة عادة بديلة في نفوسهم، وبحيث يستطيعون الإنفاق عليهم عن محبة ورضاء نفس، كما يصوره القرآن كصفة من صفات المؤمنين في قوله: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ – أي حب الطعام – مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا) (الإنسان: ٨ ،٩)

(79) محمد البهي، القرآن والمجتمع، مكتبة وهبه، ١٩٧٦، ص ٨.

فعادة الجاهليين والماديين هي البخل والشح، هي الأنانية وعدم الاعتراف بالآخرين، بينما عادة الإنسانيين أو المؤمنين يجب أن تكون المشاركة بالمال والقوة، والعلم والجاه، يجب أن ترتكز على التعاطف والمساندة من قوى لضعيف، من صحيح لمريض، ومن صاحب ثراء إلى صاحب حاجة، ومن صاحب علم إلى فقير إليه ... وهكذا.

والتغيير النفسي الذي يعتبر ضرورة للتغيير الاجتماعي، لا يحدث في نظر الإسلام بإلزام أو إكراه عن طريق السلطة الخارجية، فالحياة النفسية يؤثر فيها الإقناع والمنطق، بينما الإلزام أو الإكراه قد يسبب عنادا مضادا، فإن لم يبد هذا العناد فلأنه قد غلف بالنفاق والتهرب من الالتزام (80)

والخطوات التي يتخذها الإسلام للتغيير النفسي تتمثل في:

أولا: في توضيح الأخطار التي تترتب على العادات والتقاليد التي تسود في المجتمع المادي أو الجاهلي.

ثانيا: بعد فترة من التوضيح، النهى عنها.

ثالثا: الترغيب في العادات الأخرى البديلة التي تصور المستوى الإنساني.

رابعا: بعد فترة من الترغيب، الأمر باتباع هذه العادة المرغوبة، وهنا يتم التحول، إذا كان الإيمان صادقا (81).

ولكي يحقق الإسلام التكافل بين الناس يبين أن من صفات الإيمان الإنفاق مما رزق الله، فيقول تعالى:

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (السجدة: ١٥، ١٦)

وينبه إلى أن يكون البذل في أدب دون استعلاء أو جرح الكرامة، ويجعل البذل شيئا من ذلك مبطلا لثواب ما يقدم، ويقرن البذل مع شئ من ذلك بالنفاق، فيقول سبحانه وتعالى:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ...) (البقرة: ٢٦٤)

ويحفز إلى المسارعة في الإنفاق على مختلف الأحوال شدة ورخاء فيقول تعالى:

---

(80) المرجع السابق، ص ٩.

(81) المرجع السابق، ص ١٠.

(وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء ...) آل عمران /١٣٣

ويجعل الله في كل ما تخرجه الأرض نصيبا يسمو به إلى مرتبة الحق الواجب الأداء [82]

فيقول سبحانه وتعالى:

(وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأنعام: ١٤١)

وبذلك نجد أن الإسلام بدأ بناء المجتمع في ضمائر الأفراد ووجدانهم، فهناك في أعماق الروح غرس بذرة الحب، ونسمة الرحمة: الحب الإنساني الخالص، والرحمة الإنسانية المبرأة. لقد رد الناس إلى ذكرى نشأتهم الأولى من نفس واحدة كما بينا، وأيقظ في وجدانهم شعور النسب والقربى، وذكرهم بإخوتهم في الله، وفى المنشأ والمصير، حتى إذا رقت جوانبهم بهذه المشاعر اللطيفة كانوا أقرب إلى التعاون وأدنى إلى الرخاء [83]

ومن هنا يتأكد لنا أن الرحمة لب الجانب الاجتماعي في الشخصية المسلمة وروحه الدافقة الحركة. وعندما يصف القرآن الكريم المسلمين بأنهم "رحماء بينهم" إنما يلفت النظر إلى هذا اللب وينبه إلى هذه الروح في تعامل المسلمين وتفاعلهم فيما بينهم [84]

والمرحمة من الشخصية المسلمة ذات طابع اجتماعي وذات طبيعة دينامية ...

ذات طابع اجتماعي في موضوعها، لأنها لا ترتبط ولا تركز على فرد بعينه، إنما هي اتجاه عاطفي نحو جماعة أو جماعات من المسلمين، كما أنها ليست مجرد رأفة تتحرك في الجوانح أو رقة تملك الفؤاد، وتقف عند هذا "الحال الداخلي"، بل هي تعبير عن ذلك الحال بسلوك يتمثل في صيغة معينة للعلاقات التي تسود بين الشخصيات المسلمة والمعاملات والتفاعلات الاجتماعية التي تدور في جماعتهم.

والرحمة ذات طبيعة دينامية في تفاعلها، لأن المرحمة تتحرك بين الأفراد المسلمين وتحركهم، تتحرك بالتناصح والتصالح، نحو التعاون والتسامح، وتتحرك بهم في كل عمل فيه صلاح دنياهم وأخراهم، وتتحرك بهم في أمور عباداتهم وشئون معاشهم [85].

---

(82) يوسف الشال: الإسلام وبناء المجتمع الفاضل، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية (٦٠)، ١٩٧٢، ص ٢٧٨.

(83) سيد قطب: دراسات إسلامية، د.ن، ١٩٦٧، ص ٥٣.

(84) سيد عثمان، المسئولية الاجتماعية والشخصية المسلمة، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٧٩، ص ٢١.

خامساً – المعرفـــــــة

نحن وإن تناولنا القضية الخاصة بالمعرفة جزءا قائما بذاته، فإن هذا لا يعني انفصالها عـــن المقومات الأربع السابقة للتصور الإسلامي، وعلى سبيل المثال، فالله سبحانه وتعـــالى هـــو مصدر معرفة الإنسان بالمعرفة الخاصة بعالم الغيب، وهو الذي منح الإنسان أدوات المعرفـــة، وحدد لكل منها مجاله وحدوده. والكون هو الموضوع الأساسي للمعرفة الإنسانية، وكذلك المجتمع، بل والإنسان نفسه. والإنسان هو الذي يقوم بفعل المعرفة، بما يملـــك مـــن أدوات الوصول إلى ما يمكن الوصول إليه منها ...وهكذا، مما سوف يتأكد لنا تفصيلا في الفقرات التالية.

وقد اصطلح على تسمية المبحث الخاص بالمعرفة، في الدراسات الفلسفية (بنظرية المعرفة) أو "الإبستمولوجيا"، ومن ثم يكون المقصود به: البحث في إمكان العلم بالوجود أو العجـــز عن معرفته: هل في وسع الإنسان أن يدرك الحقائق ويطمئن إلى صـــدق إدراكـــه وصـــحة معلوماته، أم أن قدرته على معرفة الأشياء مثار للشك؟ أهي احتمالية ترجيحية أم أنها تتجاوز مرتبة الاحتمال إلى درجة اليقين؟ ثم، ما منابع هذه المعرفة وما أدواتها؟ أهي العقل أم الحس أم الحدس؟ ثم، ما طبيعة هذه المعرفة وحقيقتها؟ وما علاقة الأشياء المدركة بالقوى التي تدركها؟ ... إلى آخر هذه التساؤلات [86].

إمكانية المعرفة:

فإذا أردنا أن نكشف عن تصور الإسلام بالجزء الخاص بإمكانية المعرفة وحدودها فسوف نجد أن كتاب الإسلام يحمل الإنسان مسئولياته العقلية في التفكير وطلب المعرفة واســـتيعاب ثمراتها، وهو يخاطب أولى الألباب والذين يعقلون ويتفكرون ويتذكرون القرآن، وأولى آياتـــه نزولا:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق: ١-٥)

، ويعرض القرآن عقيدة الألوهية والبعث والجزاء على عقل الإنسان:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (الطور: ٣٥، ٣٦،) و

---

(85) المرجع السابق، ص ٢٢.

(86) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، القاهرة.

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ) (المؤمنون: ١١٥)، و
(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) (سبأ: ٤٦)

والكتاب المبين يثير طاقة العقل الإنساني، ويوجهه إلى المشاهدة والملاحظة والإدراك لشتى ظواهر الكون الواضحة لكل ذي عينين ونواميسه المعجزة التي يسبر غورها أهل العلم بالبحث والتدبر [87]، فيجئ قوله عز وجل:

(أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) (ق: ٦-٨)، **وأيضا:**

(إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأنعام: ٩٥-٩٩)، ويقول:

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (الأنبياء: ٣٠-٣٣)، ويقول كذلك:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) (الروم: ٢٢)

إن دراسة هذه الآيات تكشف لنا عن حقائق أساسية يمكن أن نوجزها فيما يلي [88]:

---

(87) محمد فتحي عثمان: القيم الحضارية في رسالة الإسلام، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ج١، ص ١١٢.

(88) محمد أحمد خلف الله: الأسس القرآنية للتقدم، كتاب الأهالي، ١٩٨٤، ص ٤٧.

١- أن الله حين طلب إلى العقل النظر في الكون للتعرف عليه إنما كان ذلك منه إيماء أو إشارة بأن للعقل البشرى من القدرة بحيث يدرك – ولو بالتدريج – أبعاد هذا الكون بمن فيه وما فيه من كائنات، كما كان ذلك إيذانا منه بأن هذا الكون قابل أن يفهم عقليا وبدون حاجة في بعض الحالات إلى النصوص.

٢- أن العقل البشرى سوف يدرك من حقائق هذا الكون مقاصد المولى سبحانه وتعالى من خلق هذا الكون بمن فيه وما فيه، كما سوف يدرك من كيفية بناء الله لهذا الكون السنن والقواعد التي أقام الله عليها هذا البناء المحكم من حيث هو صنع الله الذي أتقن كل شئ، وإذا كانت سنن الله لا تتغير، والقواعد التي أقام عليها هذا البناء ثابتة أبد الدهر، فقد أصبح في إمكان العقل البشرى الاهتداء إلى هذه القواعد وممارسة الحياة على أساس منها.

٣- أن العقل البشرى لن يدرك كل حقائق الكون، بمن فيه وما فيه دفعة واحدة، وإنما سوف يدرك هذه الحقائق في مراحل مختلفة من الحياة، ومعنى ذلك أن العقل البشرى لن يكف عن البحث والدراسة ما دامت هناك أشياء لا تزال مجهولة، ولا يزال هو يجد في البحث عنها

وهذه الحقائق الثلاث تؤكد استمرارية السعي في سبيل تحصيل المعرفة، وما على الإنسان إلا أن يتبع هذه الأسس، وعند ذلك تصبح أداة حقيقية من أدوات تطوير المجتمع وتقدمه.

كذلك فإن هذه الحقائق تكشف لنا عن آفاق واسعة يمكن للإنسان أن يجوبها بحثا عن المعرفة، بحيث تتعدد مجالاتها وتتنوع، مما تؤكده لنا آيات القرآن الكريم، بما لا يسع لنا حصره، فمجالات المعرفة في هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه من مخلوقات تقع في نطاق وسائل الإدراك البشرى وكلها مباحة والإنسان مطالب بدراستها، فمن ذلك [89]:

- النظر إلى المخلوقات عامة نظرة فلسفية عميقة. وقد وصف الله ذوى الألباب بأن هم: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (آل عمران: ١٩١)

- وصف الأجرام السماوية مما تناوله علم الفلك: (وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس: ٣٧-٤٠)

(89) على عبد العظيم: فلسفة المعرفة في القرآن الكريم، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية، ١٩٧٢، ص ٦٨.

- وصف الأرض وما فيها من جبال وأنهار وصحارى وسهول ووديان مما تتناوله علوم الجغرافيا وطبقات الأرض: (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاء وَأَمْوَاتًا وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتًا) (المرسلات: ٢٥-٢٧)

- وصف تكوين الإنسان العقلي والجثماني مما تناولته علوم الطب وعلوم النفس: (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) (الطارق: ٥-٧)

- الصلات البشرية مما تناولته علوم الاجتماع: (يا يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣)

- تكوين الحيوان مما تناوله علم الحيوان: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ) (يس: ٧١-٧٣)

- تكوين النبات، مما تناولته علوم النبات: (وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) (الرحمن: ١٠-١٢)

- تكوين الجماد مما تناولته علوم الطبيعة والكيمياء، قال: (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) (الحديد: ٢٥)

- الظواهر الطبيعية مما تناولته أبحاث الفضاء وغيرها، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ) (النور: ٤٣)

وهكذا أوجب الإسلام أن تتوافر للإنسان حصيلة من العلم ترتقى بعقله ليكون جيد الفهم حسن الالتقاط مصيب الاستنتاج، فالقرآن لا يريد إنسانا يستغفل ما يطرح عليه من أفكار وقضايا وأغراض، وإنما يريده ذا عقل فطن عنى صاحبه طويلا بتعريضه للعلم واكتساب الخبرة ليكون أهلا لتلقى عقيدة الوجود المثلى، راسخا لا يتزعزع أمام التيارات الضالة، وإنما يعرف أقدار كل ما يواجهها ليدحض الباطل عن بينة ويقيم للحق أثبت بناء وأشمخه على بينة أيضا [90]

(90) شاكر عبد المجيد: المنهج العلمي للاعتقاد، بغداد، مكتبة القدس، ١٩٨٤، ص١٢.

ولنتأمل جيدا نموذجا مما انتشر في طول القرآن وعرضه عن مستوى العلم المناسب لتلقى الخطاب القرآني وفهمه على أفضل الوجوه حتى يمكن لكلام الله أن يأخذ مداه كاملا بين الناس فتتأدى الرسالة التي أراد ربهم أن ينهضوا بكل أعبائها أحسن ما يمقدورهم أن يفعلوه.

يقول الله عز وجل:

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (البقرة: ٢٣٠).

حدود الحلال والحرام التي اختطها الشرع الإلهي إنما يتبين أمرها لقوم أوتوا بصائر من العلم وليس لقوم جهلة يتلقون وحي الله كيفما تأدى بسبب اعتلال أفهامهم وانحرافها لأنهم حرموا أنفسهم من نور العلم والمعرفة وارتضوا أن لا يرتفعوا إلى مقام الآدمية السوي [91]، ويقول تعالى:

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) (الجاثية: ١٨)،

فالله عز وجل قد أنزل خاتمة الشرائع كاملة آياتها محكمة، وليل ملتزمها كنهاره ضياء وهدى، ولذلك لا ينبغي، بعد اتباعها، الإصغاء لذوى الأهواء الجاهلين، جهالة هؤلاء وسيطرة الهوى عليهم تجعل العالم البصير لا يلتفت إلى مقترحاتهم ولا سيما بعد أن وجد في شرع الله بين يديه تبيانا لكل شئ [92].

إنه تذكير رباني لرسوله ومن خلاله لجميع المسلمين، لأن ذلك الاتباع لذوى الأهواء الجاهلية قد يحصل من بعض العباد على طول الشوط الممتد إلى يوم القيامة، بل إنه حصل ولفترات طويلة والعياذ بالله، وما زال هذا التذكير الرباني محتفظا بكل الوجاهة وسيبقى كذلك إلى انتهاء الدنيا [93].

مصادر المعرفة:

وبالنسبة لمصادر المعرفة، فإن الجمهرة الكبرى من مفكري الإسلام تؤكد – بناء على معطيات القرآن الكريم والسنة النبوية – على أنها تنقسم إلى نوعين: إلهية، وبشرية، وإن كنا نلاحظ أن النوعين متكاملان، إذ أن الإنسان ما كان له أن يصل إلى ما وصل إليه من معرفة عن طريق الحواس والعقل، إلا لأن الله عز وجل وهبها له وأودع فيها القدرة على المعرفة، كل في حدود خاصة به.

---

(91) المرجع السابق، ص ١٣.

(92) المرجع السابق، ص ١٥.

(93) المرجع السابق، ص ١٦.

أ – المصدر الإلهي: ويتم تدفق المعرفة من الله عز وجل إلى أنبيائه ورسله ليقف الإنسان من خلالهم على ما لابد من معرفته، وتعجز أدوات حسه وعقله عن إدراكه، وخاصة بالنسبة للمسائل الغيبية، وهناك آيات متعددة تؤكد لنا هذا، نسوق منها على سبيل المثال:

فيما يتصل بالله، قال سبحانه:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) **الإخلاص**

ومن حيث الغاية من خلق الإنسان والجن، قال:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: ٥٦)

وفيما يتصل بمصير الكون، قال:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) (الحاقة: ١٣-١٧).

أما فيما يتصل بالوحي كمصدر على وجه العموم، فنجد:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ) (هود: ٣٦-٣٧)، وقال:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) (الأنعام: ٧٤-٧٥)

ب – المصدر البشرى، والذي يرجع إلى كل من الحواس والعقل: فمن الأمور المسلمة أن كلا منا يواجه الكون حيث يولد بذهن خال كل الخلو من معرفة أي شئ، وفى الوقت نفسه يواجه الكون بجهاز للمعرفة مرهف مدرك، هو الحواس والعقل [94]. ومن اللحظة الأولى تقع الحواس على الكائنات المادية الخارجية، إذ تتعرض تلك الكائنات لها فتنتقل صورها إلى المراكز المعدة لاستقبالها في الدماغ ليؤدى العقل فيها دوره، وبتوالي الأيام تتعدد التجارب ويكثر ما ينتقل من الآثار والصور، ويعمل العقل عمله فتحصل المعرفة بالتدرج في وعى الإنسان. وقد قرر القرآن الكريم تلك الحقيقة أو تلك الحقائق في قوله عز وجل:

(94) صابر طعيمة، المعرفة في منهج القرآن الكريم، بيروت، دار الجيل، د.ت، ص ١٤٢.

(وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل: ٧٨)

هذه الآية تتضمن دلالات عدة على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لنظرية المعرفة في الإسلام هي [95]:

١- أننا خرجنا من بطون أمهاتنا إلى هذه الحياة الدنيا لا علم لنا بشيء.

٢- أن الله تعالى جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة لتكون لنا أسباب إلى العلم، أي أنه تعالى جعل عقل الإنسان وحواسه الخمس: السمع والبصر والشم والتذوق واللمس، وسائل إلى المعرفة،ولكنه ذكر السمع والأبصار دون بقية الحواس اكتفاء بذكر الأهم منها.

٣- أن تحصيل العلم بتلك المواهب نعمة عظيمة يحس الإنسان جمال أثرها في نفسه، فلا يجد لديه ما يثنى به على علم المنعم إلا وجدان الشكر، يختلج في وعيه تأثرا وعرفانا.

وواضح من الآية الكريمة أن الكون الطبيعي بكل ما يحتوى من كائنات هو المصدر الطبيعي لما يكون لنا من علم، ذلك أنها لفتت الأذهان إلى أن للحواس أثرا محمودا يستدعى الشكر وهو كسب العلم، ومعروف أن هذا الأثر حدث من تعرض صفحة الكون للإنسان ووقوع حواسنا عليه، والحواس ليست غددا تفرز العلم، وليس العلم خاصية ذاتية، فبقى أنها وسيلة إلى العلم، وبما أنها لا تقع إلا على صفحة الكون، فالكون لا جرم مصدر ثقافة الإنسان، ذلك أن هذا هو عين واقع الإنسان الذي تقرره تجاربه، فأبصارنا وأسماعنا إنما تقع على هذا الكون، ولا تقع على غيره، "وبوقوعها على كائناته من جماد وحيوان ونبات وإنسان، نكتسب العلم والتجربة والخبرة، وذلك أمر مدرك بالبديهة دون حاجة إلى معرفة من نص قدسي" [96]

والحواس آلات للاتصال بالمدركات الجسمية، وقوة الإحساس أو القوى الحاسة تعد إحدى وظائف الإدراك، ولا يستطيع مذهب ما أن ينكر وجود الحواس، وأن لها أثرا في عملية المعرفة، والحاسة تتكون من عضو للحس، وقوة لهذا الحس، إذ ليس الإحساس اتصالا

---

(95) المرجع السابق، ص ١٤٣.

(96) محمد على الجوزو: مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٠، ص ١٨٦.

ماديا فحسب، بل إن عضو الإحساس – وإن كان جسميا – فيه قوة أساسها حياة الإنسان المدرك [97].

وبالنسبة للسمع فقد ورد الفعل "سمع" ومشتقاته في القرآن الكريم في تسع وسبعين موضعا، الأمر الذي يدل على مبلغ حرصه عز وجل على أن يعلم عباده أجود الوسائل وأصح الطرق في الاعتقاد والإدراك، ومن هنا يشير سبحانه وتعالى إلى "أفضل الاستماع"، فيقول:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) (الزمر: ١٨)

فأصحاب العقول الجيدة لا يكتفون بالاستماع الحسن المنصف للقول وإنما تحملهم جودة تفكيرهم على اتباع أمثل ما يسفر عنه التفكير المحص للمسموع.

وبالنسبة للبصر، نجده سبحانه وتعالى يسخر من هؤلاء الذين لا يستخدمون حاسة البصر في الإدراك والوعي: (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ) (البلد: ٨)

فمن أوتى عينين فلم يسترشد بهما كمن أوتى مصباحا وسط الظلمة، فلم يلتمس الأمان لموطن قدمه والخلاص لكيانه المهدد، وإنما راح يستعين بضوء المصباح على طلب الحفر والدنو من جحور حشرات ضارة!

(وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) (فاطر: ١٩)، فمن الطبيعي أنهما لا يتساويان، لأن ما يراه البصير في عالم العيان يزيده تمكنا فتكون عيناه خير عون على النهوض العالي بأعباء الحياة، أما الأعمى إذ لا يرى شيئا في عالم العيان، فلا تمكن له إلا بمساعدة من سواه ولا نهوض له بأعباء الحياة إلا بقدر ما يساعده الآخرون [98].

وبالنسبة لحاسة "اللمس" نجده سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ) (الأنعام: ٧)

أما "الشم"، فيشير إليه قوله عز وجل:

(وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ) (يوسف: ٩٤)

---

(97) المرجع السابق، ص٢٠٠.

(98) الأسمر: فلسفة التربية الإسلامية، ص٣٥٦.

وليست الحواس في القرآن الكريم مجرد آلات وأجهزة مادية، ذلك أن أداءها لوظيفتها إنما يرتبط بالعقل المدرك الواعي، ومن هنا جاء قول الله عز وجل: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) (البقرة: ١٧١)

فتعطيل الفهم والتدبر والتأمل العقلي يبطل عمل الحواس، ومن ثم يصف أصحابها بأنهم "صم بكم عمى".

ويقول عز من قال: (...أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ) (يونس: ٤٢)

فهذا النفر من الناس يعطلون عمل عقولهم بحيث لا يجدي إسماعهم شيئا لأنهم بتعطيل العقل يصبحون صما.

وهذه المعاني نفسها نجدها في قوله تعالى:

(...لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف: ١٧٩)

فموقف الذي لا يعي ويستفيد بما يتلقاه من إدراكات حسية كأنه فاقد حواسه ومثله كالأنعام التي لها حواس ولكنها لا تعقل بها شيئا، بل إن موقف الإنسان في هذه الحالة أسوأ، فالأنعام لها عذرها لأنها لم توهب العقل المدرك، أما الإنسان فوهبه لكنه لم يستثمره في تفسير ما يحس به.

وإذا كان قد حدث اختلاف في نوعية الخلايا العصبية المخية المكونة للعقل، فلم يجر الاختلاف على وظائفه وقدراته، فهو مركز التفكير، والإدراك، والفهم، والوعي، والتدبر، والشعور، وله القدرة على استعادة المعلومات واسترجاعها واستخدامها واستثمارها، وقدراته وإمكاناته هذه، قابلة للنمو والتحسن والتطور، بالمعرفة والخبرة، وبدونهما تبقى قدراته، وإمكاناته محدودة، فإمكانات عقل الطفل وقدراته، لا تتساوى مع إمكانات عقل البالغ وقدراته، وقدرات عقل المتعلم المثقف الواعي، لا تتساوى مع قدرات عقل الجاهل الأمي محدود المعرفة [99].

ومن المعلوم أن العقل يعمل كلا متكاملا، وليس قدرات وعمليات وعناصر منفصلة، وهكذا يأتي نشاطه متكاملا، فلا إرادة بدون تفكير، ولا تفكير بدون تدبر، ولا تدبر بدون تأمل ... وهكذا.

ومهمة العقل تترابط وتتفاعل مع مهمة الحواس في اكتشاف المعرفة وبيانها واستخدامها، وليس في إيجادها، فهي موجودة فعلا قبل اكتشافها، فالعقل والحواس كاشفة للمعرفة

(99) عبد الفتاح جلال، مرجع سابق، ص١٠٦.

وليست موجدة لها، لأن موجدها هو الله سبحانه وتعالى، وكل إدراك حسي يتفاعل مع المكون العقلي، بحيث يحول العقل المدركات المحسوسة إلى مفاهيم مجردة، وبهذا تتكون المعرفة بعلاقة معقدة مترابطة متشابكة بين المعلومة والعقل والحس، لكن للعقل دور القيادة والريادة في توجيه الإدراك الحسي إلى المسالك التي يراها أقرب للحقيقة وأكثر فائدة وجدوى في الوصول إليها [100].

(100) المرجع السابق، ص١٠٨.